اقرأ

محمد عبده عزام

شيخ التكية

دار المعارف بمصر

شيخ التكيّة

محمد عبده عزام

شيخ التكية

اقرأ ٩٦
دار المعارف للطباعة والنشر

اقرأ ٩٦ — نوفمبر سنة ١٩٥٠



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

رحيل

عرفت صديقى الشاعر مرحاً مهما أثقلت نفسه الحياة ، وأجمل ما فيه أنه دائماً يتخذ من آلامه مادة لسخرية عذبة ، يهوّن بها على نفسه وعلى أصدقائه من حوله . كانت الحياة عنده صوراً يصنعها بدعابته، ويؤلفها بخياله، ويعيش بينها لاهياً عابثاً أحياناً ، وجاداً مأخوذاً أحياناً أخرى. كان لا يقر الحياة الواقعية التى يحياها الناس ، فكان يبدّل من أسمائهم ويعطيهم أسماء من عنده توافق سحنهم وطباعهم ، وتنفق مع نظرته إليهم ، وكان يبدل كذلك من وظائفهم ويوزع عليهم وظائف أخرى يأتى بها من متحفه الخيالى الملىء بالصور ! وكان يطبّق هذا حتى على نفسه ، فيعدّد أخطاء الحياة معه ، وينتهى إلى أنه هو الآخر قد دُفع إلى طريق لم يكن يريدها لنفسه حين صار مدرساً بإحدى كليات الجامعة ، وكان يقول لى دائماً إنه إنما يعيش منتظراً سبيله يهتدى إليها ، ونفسه يجدها ، وحياته يحسّها . . .

وكنت إذا ضقت بالجامعة وبالكلية التى نعمل فيها لقيته وقضيت بعض الوقت معه ، فأخرج من عنده بصور تهوّن على الحياة ، وتجعلنى أقرب إلى الفلاسفة الضاحكين وأصحاب الفنون الذين يخرجون من واقع الحياة ويعيشون فى آفاق لا يعرفها الناس .

كنت أحب هذه الصور الخيالية التى يرسمها لى صديقى، والتى كانت تصبغ الحياة بلون بديع فى عينى . . وكنت كثيراً ما أحاول أن أرى الأشياء كما يراها هو ، وأضفى عليها من خيالى مثل الذى يضفى ، لعلى أغير من جمودها وأوضاعها ، لكنى أخيراً كنت أهرع إليه لأنظر إلى صوره . . .

وهكذا عشنا زميلين كريمين ، وإلفين حبيبين ، وكان أصدقاؤنا من الزملاء يحبون هذا الصديق الشاعر كلّ الحب ، ويتهافتون عليه ليروا صورة من هذه الصور الساخرة التى يبتدعها كلما وقعت عينه على شىء . . . وما أكثر ما جلبت له هذه الصور من أذى ، وما أكثر ما دفع ثمنها من عيشه ، ولكنه كان لا يعبأ ما دام يستطيع أن يحيل آلامه إلى

صور ! وكنا بعض الأحيان نشفق عليه من صوره الجريئة اللاذعة إن رآها أصحابها أو سمعوا بها فربما حاسبوه عليها حساباً عسيراً يحطم حياته ، أمّا هو فقد كان كأنه آمن مطمئن . . .

عاش صديقى شاعراً يطلب تجارب شعورية تستثيره وتغذى خياله ، فإن استقرت حياته يوماً واطمأن عيشه برم بنفسه ورأيناه متبلّد الذهن ضيق النفس !

إلى أن زرته يوماً فرأيته مهموماً على غير عادته ، كأن حدثاً جسيماً أثقل نفسه .

قلت :

ـ ما بالك اليوم ؟

فابتسم ابتسامة شاحبة ، وقال :

لا شيء . . . إنها صورة أضخم مما كنت أظن . . صورة رائعة هزّت حياتى هزّاً عنيفاً !

قلت :

ـ صورة من ؟

قال :

ـــ صورتى أنا . . . أخيراً صورتى انا !

قلت :

ـــ ماذا تقول ؟ وأى صورة تعنى ؟

قال :

ـــ أقول إنى بعد قليل سأترك التدريس بالكلية وأغدو شيخاً لتكية . . .

ـــ شيخ تكية ؟ ! أجادٌ أنت أم عابث ؟

ـــ بل جاد كلّ الجد . . .

ـــ فحدثنى إذن ، فإن هذا شىء غريب . . .

وأطرق صديقى لحظة ، ثم افترّ ثغره عن ابتسامة عليها غلالة من ألم ممض ، ونظر إلىّ كأنما يقول لى : أرأيت ؟! هكذا تمت سخريتى ، وهكذا انتهت حياتى ! ثم تأملنى كأنما ينظر إلىّ نظرة أخيرة ، ثم قال :

ـــ منذ أيام مات شاعر ، ألا تذكر ذلك ؟

ـــ نعم ، مات ولمّا تتم أنشودته !

ـــ فأصغ إلىّ إذن يا صديقى ، فقد يظهر أن هذه الوظيفة الجديدة ، أعنى مشيخة التكية ، بدأت

بتشييع جنازة شاعر ، وما إخالها إلا منتهية بتشييع جنازة شاعر آخر !

قلت :

— إنّ أخشى ما أخشاه عليك هو هذه الخيوط التى تربط بها بين الأشياء !

ولكن حدثنى حديث هذه الوظيفة ، وكيف جاءتك ، فقد يظهر أن الحياة ستحيل ابتسامتك إلى ضحك صاخب... !

قال :

— بل يظهر أن الحياة ستذهب بآخر بسمة لى ! إنها تريد أن تعطينى درساً أخيراً ؛ فقد طالما سخرت منها ولم أعترف بأوضاعها وسننها . . . طالما سخرت من الناس ورسمت لهم صوراً كنت أراها خليقة بهم ؛ فها هى سخريتى تبلغ غايتها ، وها هى صورى كلها تستحيل إلى صورة ضخمة هائلة ؛ وها أنا أصبح شيخاً لتكية ! ! أرأيت ؟

قلت :

— حدثنى كيف كان هذا ؟

قال :

– لم يكد نظرى يقع على نعى هذا الشاعر حتى وجدت نفسى تنتفض ، فأسرعت وخرجت لتشييع جنازته . إن موت شاعر يهز النفس حقاً . . . ! ورأيت نفسى بين المشيعين ، وحين رأيته محمولاً على الأعناق يحيط به علية القوم وجدت حزنى قد خالطه شيء من الزهو حتى لكأنى كنت بعض أهله . . . وسرت خلفه ، وأحسست أنى أسير وراءه إلى غاية بعيدة مجهولة . . . كنت فى الصف الأول من صفوف المشيعين عند ما بدأ يسير ، ثم رأيتنى أتدافع إلى الخلف قليلا قليلا ، وحين وصل إلى المسجد وجدتنى أتعثر فى خُطاى فى الصف الأخير . . . ولا أدرى لماذا أردت أن أقف مع أهله لأستقبل عزاء الناس وأشكر لهم جميل مواساتهم ، ولكنى ما لبثت أن شعرت أنى قد أكون فى هذا متطفلاً بعض الشيء . قلت يجب أن أدعهم يسعدون وحدهم بالحزن وجميل العزاء ! وحين جئت لأسلّم وأمضى بدورى وجدتنى متهالكاً لا تكاد تحملنى قدماى . . . والتفت فإذا بصديق قديم ممسك بذراعى . هنا يا صديقى بدأت قصة التكية . هنا بدأت

الحياة تعرض على هذه الصورة الضخمة المزعجة . هنا بدأت التجربة الكبرى والمحنة المضحكة ، إن كان من المحن ما يضحك ! ونأى الشاعر عنا كما ينأى طائر رائح إلى عش بعيد . . . ثم أخذنا مجلسنا فى مقهى قريب ، وتذاكرنا عهوداً مضت . . وكان هذا الصديق يشغل مركزاً ممتازاً فى وزارة الأوقاف . وسألنى عن حالى فعرف أنى ضيق الصدر بما أنا فيه ، فبادرنى بقوله :

— عندى لك وظيفة مرتبها يبلغ المابة وخمسين جنيهاً ، فما رأيك ؟

قلت :

— ماية وخمسون جنيهاً فى الشهر ؟

— نعم ، ماية وخمسون .

واختلجت شفتاى ، وأسرعت لأدارى هزّة فى نفسى بإشعال سيجارة لى وسيجارة له . ونسيت الشاعر الراحل فى هذه اللحظة ، وقلت له :

— ما هى تلك الوظيفة وأين ؟

— فى الحجاز ، أتذهب ؟

ــ نعم أنا فى حاجة إلى سفر . . .

وأخذ صديقى يحدثنى عن مزايا هذه الوظيفة دون أن يذكر لى ما هى ، أخذ يقول لى :

ــ إنك فى حاجة إلى سفر بعيد ، أليس كذلك ؟

ــ نعم أنا أحوج ما أكون إلى ذلك .

ــ وأنت أيضاً فى حاجة إلى بعض المال لتصلح قليلا من شأنك ؟

ــ نعم ما أحوجنى إلى ذلك أيضاً ، فقد ثقل دينى . . .

ــ ثم إنك فى حاجة إلى التفرغ بعض الوقت لإنجاز رسالة الدكتوراه ، وهذه الوظيفة لن تجهدك فى شىء ، بل ستتيح لك الوقت والتفرغ .

ــ نعم أنا فى حاجة إلى وقت وخلوة لأفرغ لنفسى ولهذا الشاعر الذى أكتب عنه . .

ــ وأظنك فى حاجة إلى ترك الكلية بعض الوقت لتنقذ نفسك من هذا العناء الذى أعرف بعضه ، أليس كذلك ؟

ــ أرأيت إلى ما صرت إليه ؟ ! ولكن ما هى هذه الوظيفة ؟

كان صديقى يحدثنى وهو يلعب بنفسى وكأنه يصنع بى تجربة من تجارب الإيحاء ، فتدرّج بى إلى اللحظة الملائمة التى بلغ فيها تهالكى غايته ، إلى أن وجدت نفسى أمامه كأنى غريق جاء هو وانتشلنى من بحر مائج بالأهوال ، فمدّ يده وأنقذنى من هلاك محقق ، ثم وضعنى على الشاطئ وأنا أتلمس الحياة وأرتعد ، وأوقد النار . فأحسست الدفء وارتدت إلىّ الحياة ! ثم أخذ هذا الصديق المنقذ ينظر إلىّ والرعدة تخفّ عنى قليلا قليلا ، والحياة تدبّ إلىّ شيئاً فشيئاً ، إلى أن انهمرت دموع الفرح من عينى ، وبلغ تعلقى بالحياة غايته ، فشكرته من كل قلبى ، وقلت له :

— إنى مسرع الآن لبيتى لأعدّ حقيبة السفر ، ولكن قل لى بربك ما هى هذه الوظيفة ...

قال :

— ستكون شيخاً ، أقصد مديراً ، للتكية المصرية بمكة أو المدينة . .

ثم نظر إلىّ نظرة نافذة لم تدعنى أفكر أو أتردد ، فنهضت وصافحته ، وقلت :

— حسن جداً ، فقد قبلت شاكراً .

قال :

— فمرّ عليّ إذن فى غد لنكتب الطلب ونعمل اللازم .

وافترقنا على هذا ، وذهبت إليه صباح اليوم ، وكتبت الطلب . أرأيت ؟ أكنت فى هذا عاقلاً أم مجنوناً ؟

ووجم صديقى ، وحاولت أن أسرّى عنه، فهنأته مازحاً ، ولكنّ ظلالاً دكناء كانت تلف نفسه فلم يمزح كعادته ، فقلت له :

— غمرة تنجلى بعد قليل، وسيبدو لك ، فتعتذر لصاحبك، بعدها نذكر هذه الحادثة ونضحك منها !

فنظر إلى وقال :

— ما أظن ذلك ، وإذا أراد القدر أن يمزح معى فما أظننى قادراً على رده . . . لطالما قبل مزاحى فعلىّ أن أقبل مزاحه !

قلت :

— لا بأس ! فهذه علبة من الألوان والأصباغ البديعة، فضعها بين يديك فى تكيتك ، وارسم لنفسك وللناس هناك

ما تشاء من الصور . . .

وتركته على أن ألقاه قريباً ، وكنت موقناً فى نفسى أنه لن يلبث أن يعدل عن هذه الوظيفة .

تقوى السكران

كنت موقناً أن هذه الوظيفة الغريبة ستلعب بنفس صديقى الشاعر وتنقله إلى تجارب شعورية أعمق مما يظن . . . لقد كان يشكو لى أن حياته كادت تجمد وتستقر ، وكان يود أن يذهب إلى أفق جديد من آفاق الحياة . . . فهل تراه كان يقدر أنه ذاهب إلى هذا الأفق العجيب ؟ ! أيترك الكلية ويغدو شيخاً لتكية ؟ ! ما عسى أن يصنع بنفسه هناك وهو الذى إن فرغ لنفسه قتلها أو قتلته ؟ !

ولقيته بعد يومين فرأيته كأنه مطمئن إلى وظيفته الجديدة تلك ، ولكنها طمأنينة تشوبها هواجس كثيرة ترسم له صوراً تتجسم أمامه ، فيمضى فى التجربة سعيداً بما تثيره فى نفسه وفى خياله ، شقياً مع ذلك بهذا الأفق المجهول الذاهب هو إليه . . ! وكان حائراً مضطرباً كأنه يلتمس قوة ترده عنه !

قال لى إن زوجه فرحت بهذه الوظيفة كل الفرح ، وليس

ذلك عجيباً ، فالتكية كما علمت قصر جميل فيه الخدم والحشم وفيه فاخر الأثاث ، فهى ستغدو أميرة هذا القصر بمكة ! وابتسم صديقى وقال :

— إنها فى كل ليلة تسألنى ماذا تمّ وهل صدّق الوزير . وأريد أن أحدثها بما يشوب نفسى من هذه الوظيفة فترمينى بأنى كثير الأوهام والظنون . . . وأريد أن أشفق على نفسى من حرّ مكة فتأبى علىّ وتقول لى : إن الغنى يحيل السّموم إلى صَبا ! لكأنها يا صديقى تريد أن تحملنى بيديها وتقذف بى إلى الصحراء دفعةً واحدة دون أن تسمع لصراخى أو تتوجع لشكاتى ! لم أعجب لها ، ولكنى عجبت لأستاذى . . . قلت :

— وكيف ؟ أرضى هو الآخر أن تكون شيخ تكية ؟ !

فوجم صديقى قليلا ، ودارى غصة كادت تحبس كلامه ، ثم قال :

— نعم ! فلقد ذهبت إليه لأستشيره ، وكنت موقناً أنه سيردّنى عنها . . . ولكنى ما كدت أخبره الخبر حتى رأيته يبتسم ، ويحثنى عليها ، ويبارك لى ويزكينى ! أرأيت ؟ !

قلت :

ـ ماذا قال لك ، وما وجه رضاه عنها ؟ !

قال :

ـ زرته تلك الليلة ، وكان عنده بعض الزوار ، وكان الحديث عن شيخ صغير هبط القاهرة من الريف ليطلب العلم بالأزهر ، ولم يكن فى يده ما يسدّ به حاجته ، فاضطر أن يشتغل خادماً فى مسجد من المساجد ، ثم ترقّت به الحال إلى أن صار مأذوناً ، وهو فى كل ذلك يطلب العلم ويدأب على التحصيل ، إلى أن نال إجازة العالمية . لكن العجيب فى أمر هذا الشيخ الصغير أنه هوى التصوير ، فصار يتصل ببعض الفنانين ويسترشدهم ويحاول أن يبلغ فى هذا مبلغاً ، فانتهى إلى أن صار فناناً مرموقاً بعد أن أصبح عالماً جليلاً .

كان أستاذى تلك الليلة مشرق الوجه ، باسم الثغر ، معتدل المزاج ، وكان يروى قصة هذا الشيخ وهو فرح مبتهج ينفخ دخان سيجارته بلذة وشغف ، ونحن من حوله ننصت إلى ما يقول ، حتى إذا انتهى من قصة الشيخ الفنان قال لنا :

لقد أصبح هذا الشيخ فناناً صناعاً له لوحات أُعجب بها
كثير من أصحاب هذا الفن ، أرأيتم ؟ ! وأبدى الحاضرون
إعجاباً بالشيخ ، لكنه إعجاب كان فى الحقيقة فاتراً لا يتفق
وحماسة أستاذنا لهذه القصة ، وكأنه أراد أن يضع أصابعنا
على مغزاها فى حياتنا فقال : أرأيتم إلى ما وصلنا إليه ؟
لقد أصبح خادم المسجد عندنا فناناً له لوحات رائعة ! !
فقال بعضنا : شىء عظيم ، وقال البعض الآخر : حسن
جدًّا ، واكتفوا بذلك كأنما كانوا فى الحقيقة يجاملون أستاذنا
قبل كل شىء . أما أنا فلم أقل شيئاً لأن القصة كانت فى
نفسى أقوى وأعمق من أن أعلّق عليها بمثل هذا الكلام . . .
ولقد كنت أصغى لأستاذنا وأتأمل فى هذه المصادفة العجيبة
التى جعلت تلك القصة موضوع الحديث لأنى موشك أنا
الآخر أن أقدم لأستاذى قصة تشبه هذه القصة إذا عكسناها ،
أعنى قصتى أنا حين بدأت حياتى تلميذاً وطالباً فى الكلية ،
وانتهيت إلى شيخ فى التكية !

وانصرف القوم ، وتخلفت لأفضى إليه بقصتى ، فأقبل
علىّ وأدنى مجلسى منه ، وحين بدأ ينصت إلىّ وجدتنى

أتلعثم ولا أكاد أبين ، ولكنى غالبت نفسى وقلت .

ـ سأحدثك بشيء أخشى أن تضحك منه . . .

فابتسم أستاذى وقال :

ـ قد لا يكون فيه ما أضحك منه . . .

ـ بل إنه الضحك بعينه . . .

ـ ماذا ؟

ـ سأكون عما قريب شيخ التكية المصرية بمكة .

ـ وكيف ؟

فقصصت عليه القصة ، منذ بدأت بتشييع جنازة الشاعر، إلى لقاء هذا الصديق ، إلى كتابة الطلب ، وهو مصغ إلى ما أقول إصغاءً أشعرنى أن الأمر جد لا موضع فيه للعبث . وأخيراً حاولت أن أعتذر له عن تسرعى الذى يشبه الحماقة ، وقلت له إنها كانت حركة لا شعورية من ضيق فى نفسى ، وربما لقيت صديقى بوزارة الأوقاف فاعتذرت له ، وأخذت الطلب منه .

لكن أستاذى لم يوافقنى على هذا الذى أريده ، وابتسم فى رفق وقال :

ـ لا تتردد فى قبولها ، وسأتصل غداً بوكيل الوزارة وأزكيك لديه . . .

قلت :

ـ أراضٍ أنت أن أكون شيخ تكية ؟

ـ نعم ، ولم لا ؟

ـ وماذا عساى أصنع هناك ؟

ـ معك كتبك ومخطوطاتك .

قلت :

ـ كنتَ الآن تتحدث عن هذا الشيخ الأزهرى الذى صار فناناً ، فهل تريد فى غدٍ أن تتحدث عن تلميذك الذى صار شيخ تكية ؟

فابتسم وقال :

ـ ألا تحب أن تكون لك أنت أيضاً قصة فى الحياة ؟ ! إن الأطراف تتلاقى على كل حال ، فهوّن عليك . . .

قلت :

ـ أتريد الحق ؟ أقسم ما جئتك لأستشيرك بالمعنى المفهوم ، ولكن لأقول لك : انظر يا سيدى كيف ترامت

بي المرامى وأشرفت على نهايتى ! وكنت أقدر أنك ستردنى عنها ، بل كنت أراك ساخراً منى مشفقاً مع ذلك علىّ !

قال :

— ولم ذاك ؟ إن فيها خيراً كثيراً . . . أيسوؤك منها اسمها ؟ إن التكايا كثير . ولها أسماء متعددة ، ومع ذلك فقد تستطيع الوزارة أن تغير اسمها يوماً من الأيام ، فلا تبتئس !

وابتسم أستاذى ابتسامة حاول أن يبعد عنها ما عسى أن أجد فيها من سخرية ، بل خيل إلىّ أنه دافع ضحكة من ضحكاته المدوّية التى أعرفها ، وطلب إلى ألا أتردد فى قبولها .

وخرجت يا صديقى من عند أستاذى تلك الليلة ، وأخذت الطريق إلى بيتى وأنا مأخوذ لا أكاد أعى شيئاً ! وكأنما قضى الأمر وأصبحت حقاً شيخ التكية ، فهذا أستاذى الذى أراه كل شىء فى حياتى يحثنى على هذه الوظيفة ويطلب إلىّ ألا أتردد فى قبولها ، بل يعد أنه سيزكينى لها .

وهذه زوجى تكاد كما قلت لك تحملنى بيديها لتطير إليها !

وها أنا قبل كل شىء قد كتبت الطلب برغبتى وإرادتى ، فلم يبق إلا أن يصدّق الوزير ، فأخلع روب الجامعة وألبس

ثوب شيخ التكية .

وهكذا خرجت من عند أستاذى تلك الليلة وكأنما خرجت من حياة عرفتها إلى حياة لا أعرفها . وقطعت الطريق إلى بيتى وأنا لا أدرى كيف قطعته . كنت أنظر إلى نفسى وأتأمل حياتى كلها . كنت أسأل نفسى ما الذى حداك لتفعل هذا ؟ أمن أجل المال فعلت ما فعلت ؟ أم لأنى ضيق الصدر بالجامعة برم بما صرت إليه فيها ؟ ولكن ما عسى أن يقول الناس عنى حين يروننى أنتقل هذه النقلة العجيبة المفاجئة ؟ ! ماذا يقولون حين يروننى شيخاً لتكية بعد أن كنت أستاذاً فى كلية ؟ ! أنا الذى عشت أسخر من الناس وأصورهم صوراً منكرة ! لقد كنت أريد أن ألعب فى الحياة دوراً فإذا بالحياة أخيراً تختار لى دوراً مضحكاً يثير الإشفاق ! دور ممثل عاشق ظهر على المسرح محباً كاد يقتله الوله ، ظل يغنى لمعشوقته ويناديها حتى خطرت له ، ودنت منه . لكنها كانت سكرى تريد أن تعبث به وتسخر منه . . . حاول أن يقترب منها فصدته عنها ، وأراد أن يمزح معها فصفعته على وجهه أمام الناس ! فضحك

الناس وضحكت هى ضحكات تفوح منها رائحة الخمر !
وظلت الحبيبة سادرةً فى عبثها، وظل هو يترضاها منتظراً أن تثوب لرشدها . ولكنها جاءت بقبعة وبيبة، وأمرته أن يضع القبعة على رأسه والبيبة فى فمه ، فامتثل طائعاً، ولكنه ما كاد يفعل حتى هجمت عليه وهى تضحك منه ضحكاً جنونياً، فطوحت بالقبعة من على رأسه وبالبيبة من فمه، فضحك الناس وصفقوا، وضحكت الحبيبة واسترسلت فى عبثها .

ووجم صديقى وجوماً كان أقرب شىء إلى الذهول، فذكرت أنه كان فى العام الماضى مرشحاً للتدريس فى جامعة لندن، وكاد يحزم متاعه ، لكن عائقاً عاق .فبقى وفى نفسه لوعة . وها هى الحياة فى هذه المرة تدفعه إلى مكة، فهل تراه يذهب إليها حقاً ؟ ! وكأنه كان يسمع ما فى نفسى كما كنت أسمع ما فى نفسه فقال :

— نعم يا صديقى ! طوّحت الحبيبة بالقبعة، وطوحت بالبيبة، وجعلت الناس يضجون بضحكٍ خبيث . وعادت لتضع على رأسى هذه المرة عقالاً ! ولكنى لا زلت أراها عابثة ، ولا زلت أسمعها تقهقه . وكأن الناس ينتظرون أن تعود

فتطوح بالعقال كما طوحت بالقبعة ! ! وكأنى أنظر فلا أرى إلا موجاتٍ من الضحك الصاخب ، وسأخرج من المسرح فى أغلب الظن وعلىّ دخان من مداخن لندن ، وفى يدى سراب من بطحاء مكة ! ! أرأيت ؟ !

ولنمضِ يا صديقى فى القصة لآخرها ، فمن يدرى كيف تكون نهايتها ..؟! ويظهر أن الحبيبة ما شربت ولا عبثت ، ولكنى أنا الذى سكرت حتى ثملت لعلى أنسى آلامى ، أو لعلى أنتقل إلى تجربة شعورية من هذه التجارب القاتلة التى أحبها ، فارتميت فى الطريق فى حلكة الليل ، فمرّ جندى الداورية فرأى جثة ملقاة فى شارع من شوارع المنيل بالقرب من النيل . . . كان الليل مظلماً حالك الظلمة ، بارداً لاذع البرد . وكان الجندى رجلا طيب القلب ، رقيق النفس ، فانحنى على هذا السكران ، وعرف أنها ضربة الخمر . وسرى إليه خاطر من مأذنة قريبة ، فانطوى على السكران وحمله حتى المسجد ، ووضعه فى داخله وقد أمن عليه من شر الليل وخطر الطريق ، وضمن أنه لن يحرّر له محضر ...!
واستيقظ السكران على صوت المؤذن فى مطلع الفجر يهتف :

الله أكبر الله أكبر ، حى على الصلاة حىَّ على الصلاة ، حيّ على الفلاح حيّ على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ! وانتفض السكران نشوان ولكن فى خوف ، فرحان ولكن فى وجوم ، ورأى أنه فى المسجد يسمع آذان الفجر ... فنهض واغتسل، ثم وقف يصلى ، وحين كان يسجد لله خاشعاً انحدرت دموع عينيه لأنه رأى برهان ربه ، فلقد ذهب ليشرب الخمر فعاد ليجد نفسه يصلّى الفجر !

وهكذا يا صديقى تفتح لى هذه الوظيفة كلَّ منافذ حياتى، وتنقلنى إلى أفق ما كنت أحسب أنى ذاهب إليه !

فى مفترق الطريق

وصلت الحال بصديقى إلى أكثر من الصور والألوان ، ومن العبث والسخرية ، وأصبح يتحدث عن تكيته جاداً بعد أن كان مازحاً ، وكلما حاولت أن أردّه لنفسه أو أذكره بعبثه نظر إلىّ نظرة الذى يريد أن يتذكر شيئاً غاب عنه ! وأشفقت عليه لهذا التحول فى حياته ، فقد ظلّ المسكين يصنع من أوهامه صوراً وألواناً إلى أن صنعت منه الحياة صورة غريبة ، وأحالته أوهامه لوناً صارخاً . . . ! ذلك الصديق الذى كان يأخذ من الناس عبثاً يتسلّى به : فها هو القدر يجعل منه للناس قصة يسمرون بها ! ها هو أخيراً يصبح لوحة ناطقة بكل ما فى الحياة من مفارقات وعبث . . . ها هو قد صار يهذى كلما لقينى بكلام يقوله جاداً مؤمناً به ، بعد أن كان الجدُّ عنده سخرية !! نعم ها هو يرى مهزلة حياته بعينه جداً لا موضع للعبث فيه !!

كان تلك الليلة فى مفترق الطرق ، زائغ العينين، موزّع

النفس ، يهمّ ليسير الشوط الأخير من حياته ، لكنه لا يدرى إلى أين يتجه ولا كيف يسير ! لقد وقفت به تلك الوظيفة هذه الوقفة الحائرة حتى كاد يجمد فى مكانه ! !

زرته فعاد بنا الحديث إلى التكية فسألنى :

ـــ ماذا يقول أصدقاؤنا عن وظيفة التكية تلك ؟

قلت :

ـــ إنهم لا يقولون شيئاً ، ولكنهم كلما ذكروها أراهم يبتسمون . . . !

فاختلجت شفتاه قليلا ، وقال :

ـــ دعهم يبتسمون ! فأنا أعرف مصدر سخريتهم . . .

قلت :

ـــ ولكنهم مشفقون أيضاً . . .

قال :

ـــ نعم وأعرف أيضاً مصدر إشفاقهم . . . لقد كانت حكايتى تلك حكاية الموسم ، وما أكثر ما أحسست من تندر ماكر ، وما أكثر ما قابلت من ابتسام ساخر ! بعضه فيه إشفاق ، وبعضه ملىء بالخبث ! ! لقد حزّ هذا فى

نفسى وكثيراً ما أقضّ مضجعى . . . لكننى صابر ، ولا أستطيع أن أعود إلى العيش فى الجامعة بعد ربع قرن من الزمان ، بلوت فيه ما بلوت ، وأخيراً خرجت صفر اليدين ، كسير القلب ، أعيش وأولادى على بعض المعانى ! !

أنت تعلم أنى ارتميت على هذه الوظيفة فى فترة كانت نفسى فيها تتدلّى إلى هاوية سحيقة من اليأس . . . أتذكر ذلك الإنسان الغريق الذى جلس على الشاطئ يرتعد فأنقذوه وأوقدوا بجانبه النار ؟ ! أتذكر ذلك السكّير الذى ارتمى ليلا فى الطريق فأخذه رجل البوليس ذاك ووضعه بالمسجد ؟ لقد أخذ الغريق يحسّ الدفء ، وبدأ قلبه ينبض نبضات قوية . . . ! ويل لهؤلاء الأصدقاء الساخرين المشفقين ! أكانوا يظنون أن هذا الغريق يفكر فى بلل ثوبه وحسن هندامه وهو يجاهد الحياة أن ترتدّ له ؟ ! أكانوا ينتظرون من هذا المعربد السكير أن يخرج من المسجد كما دخله دون أن يركع لله شكراً على نجاته ؟ !

الحق يا صديقى أننى أعشو إلى قبس يضيء لى من بعيد ، لكنى لا أدرى حتى الآن أهو نور الإيمان أم هو

ذهب مكة المتوهج ! ويحتوينى الليل ، فأرنو بعينى إلى هذا الضوء الآتى من بعيد ، فأظل أقترب منه إلى أن أراه متوهجاً أمامى يكاد يلفح وجهى ! ! ولا أكتمك فقد تمرّ على فترات أعبّ من هذا اللهب بيدىّ ، وأختزنه فى خزائنى ، وتمر على فترات أخرى أحس فيها جمال الإيمان ، ويشرق فى قلبي نور اليقين ، حين أرانى مقيما بالقرب من بيت الله . . . هنالك حيث يقف الناس على عرفات ، فيرى هذا الإنسان السادر قيمة الحياة الحقة ، ويسمع أصواتاً من الضراعة والابتهال تزرى بكل ما فى هذه الدنيا من متاع ! هنالك أحس أن قلبى يكاد يتفتح حين أرى الناس جميعاً واقفين مطأطئى رءوسهم ، فأنسى هذا الذهب المتوهج ، وأرى قلبى يغمره نور أبهى وسناء أشهى ! وأبحث عن نفسى ، وأظل طول ليلى أقول : أيها الفجر الذى طال انتظاره ! ها أنت تقترب منى . . إنّ ليل الشتاء يغرينى بالنار . . ! وماذا يخيفك أيها القلب من هذا الضوء الآتى من بعيد وقد طالما كنت ترقبه وتدعوه ؟ . ما بالك أيها القلب تشتهيه، فإذا اقتربت منه أو اقترب منك كدت تصدّ دونه ؟ إن الايمان يا صديقى —

كما عرفته يوماً من الأيام – جميل حقاً ، وجماله يروع ويبهر ، ويوقظ النفس النؤوم الضحى ، وينبه الإنسان الحالم فى وضح النهار ! ! لقد آن لنفسى أن تستيقظ ، وآن لقلبى أن يفيق، ولكن أنَّى لى ذلك وبرد الليل ووهج النار ونشوة الحياة لم تدع لى قلباً ؟ ! أنا أعلم يا صديقى أننى سلالة رجل صوفى قديم ، أودع جدّى الأول بعض وجده ومضى ، فانحدر إلينا هذا الوجد ، وظهر فينا بمظاهر شتى . ولقد شفّنى هذا الوجد صغيراً حتى لقد كنت أغشى حلقات الذكر . . . أتصدق أننى كنت أغشى حلقات الذكر ؟ ولكنى حين صرت مسئولاً أشفقت على نفسى منه ، وحبسته فى زاوية بعيدة من حنايا فؤادى . . . ! أفهمت عنى ؟ ! فإن كان الذى أخشاه وأحبّه معاً ، وعاد هذا القلب إلى شجوه القديم ، وحنينه الأول ، ووجده الموروث ، فطوف حول البيت ما طوّف ، فيا لهنائى وشقوة أبنائى ! آه يا صديقى ما أخوفنى على بنيات ينظرن إلىّ بعيون باسمة وثغور مشرقة ! فلقد أخشى أن تتحول عيناى عنهن إلى حيث هذه الأضواء الباهرة . . . ومن هذا الذى يدنو فمه من المنهل العذب فلا يرتوى وهو

ظمآن ؟ ومَن هذا الذى يرى فى الظلام مثل هذا القبس المقدّس فلا يعشو نحوه وهو ضال ؟ ! سأكون هناك بالقرب من بيت الله ، فهل أفسح لهذه الأضواء الجميلة كلّ ثنايا نفسى ،وأغفل عن هذه الثنايا الصغيرة الباسمة ؟ ! أمأستطيع أن أجمع بين سناً وسناً وثنايا وثنايا ؟ ! ويل لى ! ! فلقد تأخرت فى كل شىء ،فجئت أستشعر التقوى فى الوقت الذى أطلب فيه الغنى ، ورحت أعمر قلبى بالإيمان لكى أعمر جيبى بالأصفر الرنّان ! !

ماذا أقول لك يا صديقى ؟ ! إننى أريد أن أعود من هذه الطريق الجديدة التى دفعتنى إليها الحياة دفعاً، لكنى لا أقوى ! وكلما عدت فالتفت إلى شارع الجامعة لأستأنف السير فيه بدا لى فوقفت بعيداً عنه وأنا أقول لنفسى : ماذا أفدت منه ؟ هل استروحت حقاً بظل أشجاره وشممت أرج أزهاره ؟ ! وليتنى تملكتنى نشوة العلم فأنستنى متاع الحياة . . ! فلقد كنت أرانى موزّع القلب بين ما فى الصفحات وما فى الفترينات ! ! نعم كثيراً ما كنت أرانى أطيل الوقوف أمام هذه الفترينات كما أطيل التأمل فى

المخطوطات !! لكنى كنت دائماً أعود فأذكر الآية الكريمة : يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم !!

مَن يدرى يا صديقى فقد أعود من مكة صوفياً من أولياء الله ، وقد أعود منها ورصيدى فى البنك عدة آلاف . . . أيهما خير وأجدَى ؟ ! إنما الحياة لملاك طاهر أو شيطان رجيم ، وويل لمثلى ، أولئك الذين يشفقون على أنفسهم من روحانية الملائكة لأنهم يعيشون على الأرض ، كما يشفقون على أنفسهم من خبث الشياطين لأنهم يتطلعون إلى السماء ! !

وسكت صديقى كأنما استراح قليلا من عنائه ، وأخذت أهوّن عليه الأمر ، وأخلـّصه من أوهامه الكثيرة ، وقلت له : دع القدر يفعل ما يريد، فسواء عدت رجلا تقياً أو غنياً فقد ذقت طعم حياة جديدة على كل حال ، ولا شك أن فى هذا بعض الخير لك ولأسرتك .

لكن نفسه كانت لا يزال فيها بقية من هم ، فنظر إلىّ وقال :

— بعض الخير لى ولأسرتى ؟ ! أنسيت أنهم سيكونون عرضة لمن يقول لهم يوماً من الأيام : كنتم فى تكية ! آه

يا صديقى ! فلكم قلت هذا المثل وتندرت به على بعض الناس؟
فما بالى اليوم آخذ أولادى وأحيا بهم فى تكية ؟ !

ويبدو لى فأريد أن أشيح بوجهى عن هذه التكية ، لكن الرجل الغريق المرتعد قد شبّوا إلى جواره النار ليلاً ، وسقوه مع ذلك خمراً قوية ليتحرك ، فإذا هو بعد قليل سكران يهذى ويصيح ، ويغنى ويصخب ، وينظر إلى هذه النار فيرى فيها عرائس من المنى ترقص ، فيهجم عليها ويمد يده إليها ! !

وأعود فأستفيق ، وأحاول أن أفلسف الموقف ، وأبرّر لنفسى ما أنا فيه ، وأنظر إلى صورة الكلية بالجيزة ، وصورة التكية بمكة ، وأظل أتأملهما وأؤلف بينهما ، وما كنت أستريح وإن لاح الفجر إلا إذا استحالت الصورتان إلى صورة واحدة فى كل شىء !

كدت أجن والله يا صديقى ، لكن جنونى هذا كان منقذى !
وإذا كانت حياة التكية حياة غير ذات موضوع كما يتندّر علىّ بعضهم ويطلق عليها هذا التعبير المستحدث ، فأى حياة تلك التى كان يعيشها مدرس مثلى يقضى وقته فى دراسة حياة الشعراء وقراءة أشعارهم فإذا حصّل من ذلك شيئاً تحدث به لطلبته ؟! إنما الحياة ذات الموضوع حقاً

هي حياة الخير الذى سأقدمه للناس هناك ، فأطعم البائس والمحروم ، وأكسو العريان ، وآوى المسكين وابن السبيل . . . سأعيش بالقرب من بيت الله ، تلك المثابة التى تهوى إليها الأفئدة . . سأروح إليها وأجىء منها كل يوم ، وارداً إليها وصادراً عنها . ومَن يدرى فقد تقع خطوة من خطواتى على موضع خطوة من خطوات النبى عليه السلام فى ساعة جهدته فيها الدعوة ، فدعا ربه هذا الدعاء الإنسانى الحار : اللهم إنى أشكو إليك ضعفى ، وقلة حيلتى ، وهوان أمرى على الناس . . ! مَن يدرى يا صديقى ! فلا شك أنى سأرى أشياء رأتها عيناه ، وألمس أشياء لمستها يداه ، وقد تطوف بى رؤىً كانت تهوّم فى نفسى . . . قد يستيقظ فى قلبى جدى الأول فأستشعر صوفيته ، وتغنينى خير غناء ! ! لو رأيتنى وأنا أتقلب فى فراشى ليلاً أهتف بهذه اللمحة القدسية ، وأدعوها لتسرى إلى نفسى فتضىء شعافها الجرداء المظلمة . . ! إنّ برد اليقين وحلاوة الإيمان أجدى على من هذا الذهب المتوهج ، لكن كيف أصدف عنه وهو يملأ ليلى كلّه وهجاً ؟ !

وسكت صديقى ، وتركته لألقاه بأقرب فرصة ، فقد بدأت أتابع قصة لم أدرِ بعد إن كانت ملهاةً أم مأساة !

خطوات أخيرة

نعم! كنت موقناً أنّ هذه الوظيفة ستفعل بنفس صديقى الأفاعيل ، وأنه ربما أتى على ألوانه واستنفدها من قبل أن يذهب إليها ! وكنت ألقاه من حين إلى حين، وأسأله عما تم فيبتسم ويقول : إن الأوراق لا تزال فى مكتب الوزير دون إمضاء .

ومضت أيام فلقيته قلقاً متبرماً ، فسألته فقال :

— أرجو أن يسرع الوزير بإمضائه الكريم قبل أن أجن . . . ! !

قلت :

— أ إلى هذا الحد ؟ ! إنّ شيخ التكية يجب أن يكون حليما صبوراً راضياً عن الحياة !

قال :

— مسكين شيخ التكية هذا ! فليس له من تلك المؤهلات وهذه الصفات شيء . ومن أين لى الحلم والصبر والرضا عن

الحياة ؟ ألا تعرفنى ؟ مَن قال لك إننى شيخ تكية ؟ ثم سكت ، ثم ابتسم قائلا :

ــ ومع ذلك فهم يقولون إن الوظيفة تخلق العضو ، فلنرَ ماذا يكون منى بعد ذلك ! آه يا صديقى ما أقسى أن تسير طول حياتك فى طريق من الطرق حتى إذا كدت تبلغ نهايتها بدا لك فعدت منها ! ! أيمكن أن يصلح الإنسان منا لكل شىء حتى لو انتقل من النقض إلى النقيض ؟ ! سأحدثك ببعض الذى ألقاه ، فقد يخيل لى أن الأشياء كلها يحدثنى عن هذه الوظيفة حديثاً عجيباً هو أشبه بالهذيان . . .

قلت :

ــ لقد كنتَ تصوغ من الألم دعابة ، فما بالك أصبحت تصوغ من الدعابة ألماً ؟ !

قال :

ــ الحق أن هذه الصور التى لا أعرف من أين تأتينى كادت تقضى علىّ . . انظر يا صديقى ، فلقد كنت أغادر الكلية أمس وأنا متحامل على نفسى ، وخيل إلى أن كل شىء يمسك بى ويدعونى لأتريث قليلاً . حاولت أن أطرد

عنى هذه الأوهام ، ولكنى فى الحقيقة كنت أستشعر شيئاً من الرهبة الغامضة وأنا أهبط الدرج وأصغى لوقع قدمىّ . كأنما كانت خطواتى وأنا عائد أمس هى خطواتى الأخيرة فى حياتى الجامعية كلها . . . كنت أصغى لوقع أقدامى وكأنما كنت أصغى لموسيقى حزينة بطيئة . . ! ! ومع أن الطلبة والأساتذة كانوا حولى فى صخب يصعدون ويهبطون ، ويمرقون فى ممرات الكلية كأنهم سهام سريعة منطلقة ، فقد كنت أجد نفسى أقتلع قدمىّ اقتلاعاً ، وأحمل نفسى على الحركة حملاً ! لم أسمع من ضجيجهم وصخبهم شيئاً ، ولكنى سمعت وأنا متوجه إلى الباب الكبير صوت دعبل الخزاعى ذلك الشاعر العباسى الثائر المحنق يهمس فى أذنى بهذا البيت :

معاهد آياتٍ خلت من تلاوةٍ ومنزل وحيٍ مقفرَ العرصاتِ

وخرجت إلى طريق الجامعة ، وكأنى أحمل معى ذكريات ناء بها قلبى ، ذكريات ربع قرن من الزمان قضيتها طالباً ومدرساً بكليتى . خيل إلىّ فى هذه اللحظة أنى موشك على الاختناق ، ولكنى جاهدت وسرت فى هذا الشارع الجميل وسط حدائق الأورمان الغناء ! وما كدت أخطو بضع

خطوات حتى أحسست أنى أسير فى عراء مخيف . وكان لا بد لى من الجلوس ، فألقيت بنفسى تحت ظل شجرة . ونظرت فأحسست أن هذه الطريق لم تعد لى ، وإن كان لى فى كل شبر منها ذكريات . . . وارتميت واجماً لا أدرى متى أستطيع أن أنهض من مكانى . . ورأيت نفسى ممسكاً بعود من الحطب الجاف ، وصرت أخطّ به خطوطاً مضطربة مهوشة ، أمحو بعضها سريعاً وأمحو بعضها الآخر فى بطء وإعياء ! حتى لكأنما انتهت حياتى الجامعية تحت ظل هذه الشجرة فى تلك الطريق التى لم أقو على أن أبلغ نهايتها ! !

وكأنما استحالت رقعة الأرض الصغيرة أمام عينى إلى معرض ملىء بالصور والوجوه . . . صور ووجوه كان نظرى يقف عند بعضها طويلاً ، ووجوه أخرى كنت أشيح بوجهى عنها . . . وأنا لا أدرى لِمَ وقف نظرى طويلا عند هذه الصورة أو تلك ، ولم لم أشأ أن أرى من بعضها الآخر إلا لونها الغالب وظلّها السابغ ! فأما ملامحها الدقيقة ودلالاتها الحقيقية فإنى كنت أضيق بالتأمل فيها . ! ! صور من حياتى الجامعية التى قضيت فيها شبابى وصدراً من كهولتى ،

ووجوه عرفتها عند أول لقائى لها ، ثم عرفتها بعد عشرة طويلة معها ، ثم حرت فى معرفتها بعض الأحيان ، إلى أن استقرت على فكرة ثابتة ولون أخير ! ولقد يكون فى هذا اللون الأخير الثابت ، وهذه الفكرة التى تجمدت، بعض الوهم والخداع ، لكنى لم أعد قادراً لأراها على غير ما كنت أراها عليه وأنا أعبث بعود الحطب الجاف فى يدى المصفرة الذابلة على حافة طريق الجامعة !

أحلام يا صديقى يقعد بها العجز ، وعجز تهوّن أمره الأحلام ، ودنيا صغيرة تريد أن تتميز فى هذه الدنيا الكبيرة وتطبع صورتها على الأفق كلّه ، فتأتى يد من الأيدى وتطمسها بلون من الألوان ، فكأنما هى إعلان قديم كان على جدار خرب فجاء لاصق الإعلانات ووضع فوقه صورة أخرى لإعلان جديد ! !

أتراني ألغز ؟ ! معذرةً يا صديقى ، فما قصة التكية هذى فى الحقيقة إلا قصة نفس تتأرجح فى خيط كاد يبلغه البلى ! !

ولكنى مسرع لأعود بك إلى ما كان منى وأنا أحاول

أن أنهض من مكانى لأعود إلى بيتى. ولكن قبل هذا أريد أن أذكر لك صورة رأيتها على أرض الطريق وأنا أعبث بهذا العود من الحطب . صورة ملأتنى خوفاً وحنيناً وإشفاقاً ، صورة جماعة من الصبية الصغار يسيرون فى الصحراء وحدهم ، فتبينت وجوههم فإذا هم بنياتى وأولادى قد ضلّوا الطريق دون راحلة أو زاد ، فارتعت وأشفقت ، إلى أن رأيت قطراتٍ من الدموع تبلّل ذلك العود الجاف فى يدى !

ثم سمعت الساعة تدق وأنا جالس مهموم دقاتٍ رهيبة هزت قلبى هزّاً عنيفاً ! لكأنما كانت تدقّ من داخله ! كان الجرس أشبه بجرس كنيسة يدق دقاتٍ رهيبة حزينة ساعةَ رحيل بعض الموتى . وكأنما كانت هذه الأقدام الكثيرة التى تروح وتجىء أمامى وأنا جالس مذهول أفكر وأتذكر هى أقدام بعض الأصدقاء من المشيعين، هرعوا لتحيتى تحية أخيرة فى هذا المعبد المقدس. وها هم أولاء قد خفّوا ليروا صديقهم وزميلهم مسجىً فى جدثه ، وعليه بعض الزهور. وحوله قوم هم أشبه بالقساوسة فى روباتهم الداكنة ، وهم يتلون آياتٍ غير مفهومة من كتاب قديم غير مفهوم !!

وسكت صديقى برهة ، ثم نظر إلىّ وقال :

— ألم أقل لك إن هذه الوظيفة بدأت بتشييع جنازة شاعر وستنتهى بتشييع جنازة شاعر آخر ! !

ووجم صديقى ، ثم قال :

— ثم عدت إلى بيتى وأنا مأخوذ لا أدرى ماذا أصنع . . أحقاً أنا تارك حياتى التى ألفتها وغادٍ لأكون فى هذا الزى الغريب الذى لم آلفه ؟

أحقاً أنا ذاهب بعد قليل مع أهلى وصغارى لأحيى بمكة رجلاً طيباً متعبداً ؟

وابتسم صديقى ابتسامة ساخرة ، وقال :

— من يدرى؟! فلعلى أصلح أن أكون رجلاً طيباً متعبداً يعيش بالقرب من البيت ؟ !

ثم لقيته بعد ذلك ، فبادرني بقوله :

— ألم أقل لك إني سأجن ؟ ! لقد طال انتظار الإمضاء ، وكادت هذه الصور تذهب بما بقي من عقلي ! كنت أشكو من جمود حياتي واستقرارها ، فليتها كانت جامدة مستقرة ، أو ليتني كنت اليوم في تكيتي ! أما وأنا معلّق بين الكلية والتكية فهذا هو الشر الذي ليس بعده شر !

قلت له :

— لقد كنت تصرخ وتقول أريد أن أتحرك . . . فها أنت تحركت !

قال :

— نعم يا صديقي ! فإنّ لون حياتي شاحب كريه . . . لقد ذهب عني الشباب أو كاد ، ولم أبلغ من الشيخوخة بعد مثابة أراها هادئة مطمئنة في سهل خصيب من الدعة والقناعة . . . وظننت أن التكية هي هذه المثابة ، فإذا بها

بيت ملىء بكل ما يثير النفس ! ! أى تجربة خطيرة أخشى على نفسى منها ! فى كل ليلة لى أحاديث مع نفسى تجعلنى كما قلت لك أقرب إلى المجانين . . . فمثلا كنت وأنا فى مخدعى ليلة أمس ألقى على طلبتى محاضرة لا كهذه المحاضرات التى مرنّا عليها وألفناها ، ولكنها محاضرة غريبة قد لا تخطر لك على بال . . . محاضرة قلت للطلبة فيها كثيراً مما كان محتبساً فى نفسى طوال هذه السنوات .

فلقد خيّل إلى أنّ الوزير أمضى الورق ، ولم يعد لى إلا زيارة للكلية أصفى فيها كل شىء وأقفل راجعاً إلى بيتى ، ثم بعد ذلك إلى تكيتى . وكأنما أردت أن أحدث شيئاً ذا بال ، فقلت لنفسى : لماذا لا تحاضر الطلبة محاضرة أخيرة تسرّى بها عن نفسك قليلا . . ؟ فها أنت تارك كليتك وذاهب إلى تكيتك ، فما قال لك أحد الأساتذة الزملاء قولا يشعرك بالسلوى أو العزاء ، فهل معنى ذلك أنهم لم يفتقدونى ؟ !

لا أذود الطيرَ عن شجرٍ قد بلوتُ المرّ من ثمره !

وكأنى لقيت العميد مبتسما ، ورجوته فى جمع الطلبة والإعلان

عن محاضرة أخيرة، فوافق مبتسما هو الآخر، وظن أنها نصائح تُسدى، ووداع على غرار وداع الأساتذة المنقولين . وأمر بكتابة إعلان على السبورة فى مدخل الكلية . وفى الموعد المحدد ذهبت إلى الكلية، وسرنى أنى رأيت كثيراً من الطلبة يهرعون إلى المدرج الكبير ، وما كدت أدخل حتى قابلنى الطلبة بتصفيق قوى متصل، وهتاف عاصف ما سمعت مثله طول حياتى، فأحسست بكثير من الزهو والخيلاء، وبدأت محاضرتى . قلت لهم كما أذكر : أصدقائى الأعزاء . . . هذه هى المحاضرة الأخيرة لى معكم ، بعدها سأغادركم لأشغل وظيفة قد لا تخطر لكم على بال . . وكأنما بدا على الطلبة ذهول وحيرة — أو هذا ما خيل لى وأنا أتقلب فى فراشى وأجول بعينى فى فراغ مخدعى — نعم خيّل إلى أن أن خروجى من الكلية حدث من الأحداث قد لا يهتز له بعض الزملاء من الأساتذة، لكنه يهز طلبتى هزًّا عنيفاً، لأنى كما أوهمت نفسى كنت حبيباً إليهم جميعاً . وربما كنت كذلك حقًّا ، وفما أذكر أنى أثقلت عليهم فى شىء ، بل كنت كالزائر الخفيف الظل ألمّ بهم وأمضى لشأنى دون أن أثقل

عليهم . . ، وكنت دائماً أعطيهم من نفسي أكثر مما أعطيهم من درسي . . . لم أكن كغيري من الذين يتزاحمون ويتدافعون على الصدارة بوسائل لا أحسنها . . . هؤلاء الذين تخيّلوا فخالوا ، وجهلوا ثم تجاهلوا . . هؤلاء الذين جيء بهم لضرورة من الضرورات ، فنسوا هذا أو تناسوه . . . ولكن دعنا منهم الآن فما قبلت التكية إلا لأنسى ذكرهم ! !

دخلت المحاضرة وفي نفسي الكثير مما أريد أن أفضي به للطلبة ، لكني أحسست بشيء من الحرج إذا أنا ذكرت كل ما في نفسي مما تراه عيني في حياتنا الجامعية . . . وتوقفت عن الكلام ، وادعيت لهم أني إنما جمعتهم لأودعهم . . . ولكن الطلبة كانوا كأنما يشعرون بما في صدري من هذا العناء الصامت ، وكأنما كانت نفوسهم تمتد فتدخل نفسي وتمسها مساً قريباً . لقد كنت أفسّر لهم طول العام نصوصاً أدبية ، وما كنت أعلم أنهم غدوا يقرءون وجهي كما كانوا يقرءون نصاً من هذه النصوص . . .

وعدت فقلت لهم : أيها الأصدقاء ، بعد قليل سأحرم لقاءكم والتحدث إليكم ، وأصبح في قوم أراهم لأول مرة

ويرونني كذلك، لأول مرة، وأباشر عملا قد لا يمتّ بسبب إلى ما أخذت به نفسى طول حياتى . . . إنها الحياة أيها الأبناء الأعزاء ، تدفعنا هنا وتدفعنا هناك دفعاتٍ ليس لإرادتنا فيها من سلطان. ومن يدرى، فقد أغدو أسعد حالاً، أو قد أصبح أكثر تعاسة ! وعلى كل حال فأنا موشك أن أذوق من الحياة لوناً من الطعام ربما اشتهته النفس قبل أن تراه العين ، فلعله أن يكون سائغاً ! !

ربع قرن من الزمان أو أقلّ قليلا قضيته فى هذه الكلية طالباً ومدرساً ، وها أنا موشك على الخروج منها، وأظن أنه من حقى على نفسى ومن حقكم علىّ أن أنظر إلى هذه الحقبة الطويلة من حياتنا الجامعية ـ وقد أوشكت أن أغادرها ـ نظرةً جامعة مجردة من الذاتية والهوى، فأمّا وأنا داخل سور الجامعة فما كنت أستطيع أن أرى هذه الحياة الجامعية إلا بشىء من الرفق والمجاملة . . . ولكن ماذا عساى أقول لكم الآن وأنا لا زلت داخل سورها . . ؟ !

ثم ذكرت لهم بعض ما تعرف من هذا العوج الذى ينبغى أن يُقوم ، ومن هذا الفساد الذى يجب أن يصلح، وما نحن

فيه من غفلة نريد أن نتنبه منها ، ومجاملاتٍ نريد أن نخرج عنها . . . والحقيقة أنى كنت أخشى أن يظننى بعضهم ذلك الثعلب البائس الذى حاول أن ينال العنب فلما أعيته الحيلة قال إنه مرّ . . . لذلك كنت رفيقاً فى قولى، لا أبتغى من ورائه إلا ما أشعر به من وجوب الإصلاح . . .

ولكنى بعد قليل سمعت همهمة بين الطلبة ، ورأيت طالباً ينهض واقفاً ويقول لى :

ــ حدثنا إذا سمحت لماذا تركت الجامعة ، وأىّ عمل ستشغله ، فمن حقنا عليك وعلى الجامعة أيضاً أن نعلم المصير الذى ينتهى إليه أستاذ لنا خرج من الجامعة راضياً أو مكرهاً . . .

فاضطررت أن أحدثهم عما تعرف من قصتى بالكلية، ومن ربط حياتنا بالجامعة بتلك الإجازات الرسمية ، واضطررت أن أشير إلى بعض الرسائل التى نال أصحابها عليها إجازة الدكتوراه ، وحدثتهم عن الاتصالات الشخصية، والأبواب الخلفية فى الكلية ، وعدت بهم إلى حياتنا الجامعية الأولى أيام كنا بالزعفران ، حدثتهم عن أساتذتنا القدماء ، وما

نحن فيه اليوم من منهجية تشبه الحياة المدرسية ! وأخيراً قلت لهم إني ذاهب لأكون شيخ تكية !! وحدّث ما شئت عن تصايحهم وتضاحكهم حين سمعوا هذا ، واستغلّ الشياطين الموقف ، وما رأيك فى أننى لم تنم عينى تلك الليلة إلا على ثورة كادت تهدّ علىّ مضجعى وتفزّعنى فزعاً كاد يكون جنوناً ؟!

قلت :

— ثورة ؟ ! هل حطّم الطلبة زجاج المصابيح ؟ !

قال :

— ليت الأمر وقف عند هذا الحد ! فقد هاج الطلبة وماجوا ، وهبّوا يطالبون بإصلاح الجامعة ، واتخذونى زعيما لهم ، وصاروا يهتفون بسقوط الجامعة والجامعيين ، والرسائل والمشرفين ، والأساتذة الجهلة المغرورين . والمعيدين والمدرسين المظلومين ، وهتفوا ببعض الأسماء ، وطلبوا منهم الجلاء ! ففزعت وأشفقت على نفسى من هذه الثورة التى شببتها فكاد يصيبنى لهبها ! وأقول لك الحق ، فقد كان هذا اللهب يثلج صدرى ! أرأيت إلى اللهب الذى يثلج الصدر ؟ ! وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، أو ليتنى انسللت من باب المدرج ومضيت

لشأنى بعد أن شفيت نفسى . . . فقد أبى الطلبة إلا أن يحملونى على الأعناق ، وخرجوا بى إلى الحرم الجامعى وهتافاتهم تشق عنان السماء، واجتمعوا حول النصب التذكارى، وقرروا قرارات هامة ...

وهنا أخذ صديقى يضحك ويهز رأسه . ثم قال ل :

— لم أقل لك إن هذه الوظيفة ستؤدى بى إلى الجنون ؟! اضحك ما شئت ، فسأتلو عليك أهم هذه القرارات التى تمخضت عنها هذه الثورة . . . فقد قرروا إقامة نصب تذكارى آخر يوضع إلى جانب النصب التذكارى المقام هناك ، فهذا لشهيد الوطن، وذاك لشهيد العلم . . وما كان أشد فزعى وأنا نائم أجول بعينى فى فراغ الغرفة الملىء بالوجوه والأصوات ! نعم ما كان أشد فزعى يا صديقى حين رأيت اسمى مكتوباً على هذا النصب التذكارى الجديد ! أتدرى ماذا كتبوا عليه ؟ !

« فى سنة ١٩٢٦ دخل فلان الكلية »

« وفى سنة ١٩٥٠ دخل التكية »

« هذه حياته ، إنه لشهيد »

وصارت هذه اللوحة الرخامية تتخايل أمام عينيّ فى الظلام ، عينيّ المتراخيتين مما أثقلهما من هذه الرؤى الغريبة ، حتى لكأنهما أجنحة ثقيلة مبللة بالماء !

ويلاه يا صديقى من هذه الوظيفة التى جعلت منى بطلاً لا أدرى أيضحك الناس منه ، أم يعجبون به ! وعلى كل حال فقد كنت مغتبطاً ومستخذياً فى آنٍ واحد . . . أتدرى ماذا حدث بعد ذلك ؟ لقد استبدت بى هذه الصورة المزعجة حتى الصباح ، حتى لأفتح عينى على بعض الجرائد فكأنى أقرأ كلاماً مكتوباً ! نعم خيّل إلى أنى أقرأ خبر هذه الثورة مكتوباً بهذه الأحرف الضخمة الغليظة التى تسمى « مانشيت » : « ثورة الجامعة » « الشهيد الجديد » « مطالب الجامعيين » .. إلخ . وبعد أن وصفت الجرائد الثورة ذكرت مطالب الجامعيين وقراراتهم ، وذكرت أنهم أعطوا السلطات الجامعية مهلة ثلاثة أيام لتحقيقها سيقضونها معتصمين بالكلية وإلا فإن الحكومة تتحمل بعد ذلك تبعة الموقف . . . أرأيت ؟ !

وسألت صديقى بعد أن كاد يعدينى بجنونه ، فقلت :

— وما هى هذه المطالب ؟

قال :

ــ إنها كثيرة ، ولكنى أذكر لك أهمها . فقد طلب المعتصمون فرض امتحان للأساتذة . نعم امتحان للأساتذة من ذوى الكراسى كل بحسب اختصاصه ، وإحالتهم جميعاً إلى هيئة الأمم المتحدة ، قسم التعاون الثقافى ، فتؤلف لجنة علمية فى هذه المؤسسة العالمية لهذا الغرض ، ومَن أجازته عاد إلى التدريس بالجامعة ، ومَن لم تجزه رجع كما كان ، أو بحث له عن عمل آخر .

قلت وقد فاض بى الأسف لحالة صديقى .

ــ وأظن أنه لا بد من حضور مندوب أو أكثر للطلبة فى هذا الامتحان ؟ !

قال :

ــ هذا طبيعى ، لا بدّ من ذلك .

قلت :

ــ والأساتذة الراسبون ماذا يعملون بعد ذلك ؟

فضحك وقال :

ــ ليأتوا معى إلى التكية فإن فيها متسعاً للجميع !

ثم عاد صديقى يضحك ضحكاً أرابنى، حتى بدأت أخشى عليه من هذه الوظيفة التى تلقى به فى هذه الأوهام الغريبة ، وتأتى له بتلك الصور المزعجة ، وبدأت أدعو الله أن يصرفه عنها صارف من نفسه أو من غيره . . .

رضوان !

ومضت أيام أيضاً ، وكنت ألقاه من حين إلى حين . وكلما سألته عن حاله قال : إننى طول الوقت فى التكية أعيش فيها من قبل أن أراها . . . لقد بدأت أعيش عيشاً مغايراً ، وأحيا حياة أخرى . . . وحين كنت أستزيده يعتذر لى مرجئاً الحديث إلى وقت قريب . . . إلى أن زرته يوماً فى منزله فلقينى أحسن لقاء، وما كدت آخذ مكانى حتى أخذ ينظر إلىّ مبتسما كأنما يريد أن يقول شيئاً ، فأسرعت وقلت :

— كيف الحال الآن . . . ألا تزال تتوالى عليك بعض الصور ؟ أحسب أنّ علبة ألوانك قد نفدت !

فابتسم فى رفق، وبعد أن فرغنا من القهوة نهض واقفاً وذهب إلى ردهة البيت،ونظر هنالك فى مرآة كبيرة معلقة على الحائط ، ثم رأيته يفتر ثغره عن ابتسامة عريضة ، ثم رأيته يقدم نحوى ويمدّ يده لى ، فمددت يدى له ، فجذبنى وعاد بى

إلى الردهة حتى وقف بى أمام المرآة ، ونظرت إلى المرآة فرأيته يبتسم فابتسمت أنا الآخر . ولم أفهم ما يعنى من كل هذا . ثم عدنا إلى حجرة المكتب . وقلت له مازحاً :

ــ يظهر أن مرآتك تجعل مَن ينظر فيها أكثر رونقاً وشباباً . . !

فابتسم وقال :

ــ وتستطيع أن تخلع عليك التقوى دون أن تكون تقيًّا !

أصغ إلىّ يا صديقى ، فنى ليالى التكية تلك ، أى فى هذه اللحظات التى أقف فيها أمام تلك المرآة إذا جنّ الليل وهدأ البيت هدوءاً يوقظ الحس، ويردّ الإنسان إلى نفسه . . فى هذه الفترات التى يحسّ الواحد منا أن العيون من حوله استراحت ، والرغبات من حوله هدأت . والأصوات فى آذانه سكتت ، فلم يبق من صخب الحياة وضوضائها إلا ضوء خافت ضئيل يتحسس الأشياء هيناً رفيقاً . . . فى هذه اللحظات أرانى هذه الأيام أقف أمام تلك المرآة قبل أن أذهب إلى حجرة نومى لأرى صورة لوجهى ، صورة أريدها من هذه المرآة ، حتى إذا أعطتنيها أخذتها معى إلى فراشى ، وظللت أجيل فيها

عينىّ إلى أن يثقلهما النوم !

قلت :

— أىّ صورة تلك ؟

قال : وجه لشيخ التكية ؟ !

فضحك وضحكت ، ثم قال :

— نعم يا صديقى هو هذا . . . لقد صرت أروّض هذه المرآة كل ليلة حتى أعطتنى الوجه المطلوب أخيراً ! إن وجوه الناس يا صديقى — ومنها وجهى بالطبع — تتشكل بأشكال اجتماعية حين تحتاج إلى ذلك ، كأنما سحنة الإنسان منا طوع يديه فى بعض الأحيان ! وقد تجمد بعض السحن كأنما عقدها المجتمع عقداً محكماً لا تريد أن تنفك منه ، أو كأنما كل وظيفة تحتاج إلى ملامح خاصة تتفق وطبيعة هذه الوظيفة !

قلت : — نعم يا صديقى ، فأما وجه شيخ التكية فهو على ما أتصوره عليه يجب أن يكون وجهاً هادئ القسمات ، رضىّ التعابير ، تشيع فيه الطمأنينة ، ويترقرق فيه ماء السلام ! أليس كذلك ؟ ثم إنه فوق هذا يلزمه مسحة من الزهد وقليل من . . . .

وأردت أن أكمل الصورة التى أتصور عليها وجه شيخ التكية لعلى أساعده فيما يريد أن يأخذه معه من مؤهلات ! لكنى رأيته يضحك ويقول :

ــ وشىء من الغباوة ! أليس كذلك ؟

قلت :

ــ عفواً ما ذهبت إلى هذا الحد . . !

وتضاحكنا ، ولكنه عاد فقال :

ــ نعم يلزمنى على كل حال قدر من الغباوة ، فى وجهى أولا ، وفى ضميرى ثانياً ! ولكن قل لى كيف ترى استعداد وجهى لوظيفة شيخ التكية تلك ؟ أأترك لحيتى لتكمل ما ينقصنى من المؤهلات ؟ أم ترى أنت فى هذه القسمات الكفاية ؟ لكم شددت عليها حتى أوصلتها إلى الرضا فرضيت وإلى القناعة فقنعت !

قلت له :

ــ لو قد رضيت عن الحياة لكان وجهك وجه ملاك !

ونظرت إليه فإذا به قد نسى أنه يحدثنى ، وصار ينظر من شرفته إلى النيل ، وإلى الأفق الأخضر الجميل ؛ نظرة أضفت

على وجهه إشراقة هادئة . فلم أشأ أن أفسد عليه بعض ما يرى على هذا الأفق . فربما كانت أحلاماً افتقدها على الأرض فلاحت له على الأفق . وظل مستغرقا برهة ، ثم انتفض كأنما استفاق من وهم . ثم عاد إلى ابتسامته العذبة الطروب ، ثم قال لى :

— أظننى فى حاجة إلى وجه يشبه وجه رضوان ؟ ! سيدنا رضوان حارس الجنة الأمين . . . أليس كذلك . . ؟ !

وعجبت له ، فلقد كان إذن ذاهباً بخياله على الأفق، أفق الجزيرة الخضراء ، ليستعيد فى مخيلته وجه هذا الملاك الطاهر الأمين . ثم عاد صديقى فهز رأسه كأنه يأسو على شىء فاته ، فقلت :

— ماذا ؟

قال :

— لولا شىء واحد لكنت رضوان بنى الإنسان . . .

قلت :

— وما ذاك ؟

قال :

ـ إن عينىّ لا كعينيه . .

قلت :

ـ أفيما يشيع فيهما من رضاً ووداعة ؟ !

قال :

ـ كلا ولكن فى خضرتهما .

قلت :

ـ ومن أنبأك أنّ لراضون عينين لونهما أخضر؟ !

قال :

ـ أليس يعيش طول عمره فى الجنة ؟ فلا بد أن تكون الجنة قد أضفت على عينيه خضرتها الجميلة الدائمة ! ولكن لا ، فليس هذا ، فالحقيقة أنى رأيته أول ما رأيته هكذا . . .

ـ وأين رأيت رضوان ؟ أكنت متّ قبل ذلك ودخلت الجنة . . ؟ !

ـ رأيته وأنا غلام صغير ، فقد حدثتنى أمى عنه ، ووصفته لى من رؤيا رأتها ، فقالت إنه يلبس جلباباً أبيض ؛ وفى يده مسبحة ، ووجهه صبوح أبيض مشرب بحمرة ، وعيناه لونهما أخضر جميل . . .

قلت :

– ربما كان كذلك ، وعلى كل حال فصورة سيدنا رضوان فيما أرى تختلف باختلاف الزمان والمكان ، ومن يدريك فلعل الغلام السودانى إن حدثته أمه عن رضوان فربما صوّرته له على نحو آخر . . .

وابتسمت فابتسم ، وقال :

– يالك من خبيث ! ! وعلى كل حال فسواء كان رضوان يلبس جلباباً من الجوخ المزركش ، أو كان يلبس « سموكن » قديم وياقة منشاة عالية ، فلا بد أن وجهه يدل على طيبة القلب ، وهدوء النفس ، ونقاء الضمير ، فهل ترانى هكذا ؟ !

قلت :

– وهل تشك فى هذا ؟

وسكت وسكت ، وأخذنا ننفخ دخان سجايرنا كأنما جعلنا الدخان يتلاقى ويتحدث بما فى صدورنا ، ثم سمعته أخيراً يقول لى :

– أرأيت إلى ما صنعت بى هذه الوظيفة ؟ ليتها اضطرتنى

إلى أقلمة وجهى فحسب ، ولكنها تريد أن تضطرنى لأغدو رجلا راضياً عن الحياة ... رجلا قانعاً لم يعد له أمل فى الحياة . . . هل تصدق هذا . . ؟ ! أى مؤهل صعب تتطلبه منى هذه الوظيفة ؟ ! وسكت صديقى ، وتلهينا بالقهوة ، ولكنه عاد فقال :

ـ وذات ليلة نظرت إلى وجه رضوان فسررت به ، وأديت الصلاة كما ينبغى أن يؤديها شيخ التكية ، وذهبت لأنام . . . ويلاه يا صديقى من نفسى ، وويلاه من سخرية الحياة ! لم أكد أطمئن إلى أنى غدوت رجلا طيباً حتى سمعت هاتفاً يهتف من داخل ضميرى ويقهقه ويقول : يا لك من أفاق منافق ! أبد ما شئت أن تبدو عليه . فقلبك لا يزال يقفز ويتوثب ، وعيناك زائغتان إلى ذهب مكة ! ألا تذكر أنك نسيت صديقك الشاعر الذى ذهبت لتشييع جنازته بعد دقائق من رحيله حين لقيت صديقك ذاك بوزارة الأوقاف ؟ ! وهاأنت موشك على الإقامة بالقرب من بيت الله ، فكم من مرة ذكرت ربك ، وكم مرة ذكرت مرتبك ؟ ! تباً لك من شيطان يحاول أن يبدو للناس فى زى رضوان ؟ ! ثم قضيت الليل وأنا أحاول أن أسكت هذا الصوت الجهورى الذى

يقهقه فى ضميرى فيؤرقنى ويفزعني ، وأستيقظ فى الصباح بعد أن أكون نمت أو لم أنم ، وحين أمرّ على هذه المرآة فى تلك الردهة أرانى كأنما استودعتها وجهاً سأعود فى المساء لألقاه فيها وأطلبه منها ؟ ! أرأيت يا صديقى ماذا فعلت بى تلك الوظيفة ؟ !

وسكت صديقى ، ووجم وجوماً كاد يكون مخيفاً ، وحاولت أن أمزح معه ، وأن أجعل الأمر لا يتعدى هذا الذى تعودناه من الصور العابثة .

لكنى وجدت أن الأمر تعدى هذا بكثير ، وصار ما يتخيله صديقى يفعله ، وهذا شر ما خشيته عليه .

وتركته وعدت إلى بيتى وأنا أتابع القصة الشيقة التى أخذت تحلو لى ، وهكذا نستعذب الألم إذا صيغ لنا فى فن ، وكان يمس نفوس الغير لا نفوسنا ، حتى وإن كانت نفوس أصدقائنا !

صراع

فرغنا من القهوة ، وأخذت أنظر إلى بطل القصة لا إلى لصديق ، ولكنه كان لاهياً عني . فصرت أغريه بالكلام حتى قال ضاحكاً :

ــ ماذا تريد ؟

قلت :

ــ بعض صورك ، وما رأى شيخ التكية فى مرآته ؟

فقال :

ــ قل امرأته لا مرآته ، فهذه هى الصور الغريبة ، وذاك هو الصراع العابث !

قلت :

ــ لاشك أنّ صاحبتك سعيدة بما تحدثها به عن حياتكما هناك بالتكية . لا بد أن يكون لديها الآن مجموعة رائعة من تلك الصور لا سيما حين يجنكما الليل . . .

قال :

– نعم ! وكم حاولت أن أثنيها عن هذه الوظيفة بمثل تلك الصور ، ولكنها لا تريد أن تقتنع ، فهذه الهواجس كانت كفيلة أن تستدر شفقتها فتثنيني عنها . . . إنها وحدها التي تستطيع أن تثنيني . . ! لكنها دائماً تضحك مما أقول، وتأخذ حديثي على أنه خيالات شاعر لا أكثر ولا أقل ، وأخيراً ترجوني أن أذهب من غد لأقابل الوزير وأرجوه أن يمضي الورق ، فأعدها راضياً مسروراً ! !

وكثيراً ما حاولت أن أصوّر لها شيخ التكية هذا بصور منكرة غاية في الشناعة، غير أنها كما قلت لك لا تريد أن ترتد ، وترى أن الصور التي يتخيلها أمثالنا شيء ، وذهب مكة وحياة القصر هناك شيء آخر !

وسكت صديقي كأنه ذكر شيئاً تردّد في الافضاء إليّ به ، ثم رأيته يبتسم ويقول :

– ولأضرب لك مثلا من هذا الصراع بيني وبينها . ذات ليلة رأيتني أنهض من فراشي مرتاعاً أحدث نفسي بصوت مسموع وأقول : يا الله ! أي حياة تلك ؟ ! إنها حياة فراغ قاتل . . .

فاستيقظت صاحبتي وقالت :

ـ ماذا بك ؟ ألا تعجبك حياتنا ؟

قلت لها :

ـ عفواً . . . وإنما أردت حياة التكية التي سنحياها هناك بمكة . . .

قالت :

ـ ألا يمكن أن تريح نفسك قليلاً من هذا . . ؟ ! ماذا ؟ ألا تحب أن نحيا هنالك سعيدين ونعود موفورين ؟ !

قلت :

ـ ولكن الثمن يا عزيزتي فادح . انظري . . . أترضين لي أن أحيا حياة غير ذات موضوع كما يقول هذا الزميل الفاضل ؟ ! أليس هذا مزعجاً ؟

فابتسمت صاحبتي في رفق وقالت :

ـ أنسيت أنك ذاهب لتفعل الخير وتساعد الناس هناك ؟ فهل حياة الخير حياة غير ذات موضوع ؟ ! ألا إنّ بعض زملائك ليتجنّى عليك ويزيد في مزاحه معك !

قلت لها :

ـ الحقيقة أنني دائماً أتصور نفسى سيداً بلا عمل هناك . . . رجلاً قد استمرأ الراحة واستطاب الجلوس ، واستحلى الحديث مع الناس فى التافه والملآن ، وأنت تعلمين أى حياة اجتماعية أحبها . . . فهل أصبر على هذه الحياة الفارغة !

قالت :

ـ هوّن عليك.. تستطيع أن تمضى الوقت فى القراءة والكتابة .

قلت :

ـ إنّ الناس هناك ينتظروننى ليقضوا الوقت معى ، فهل أغلق دونهم الأبواب ، أم هى تكية أبى ؟ !

وهنا تضاحكنا ، وتصورت وقع هذه الكلمة على نفس هذه السيدة الفاضلة الرقيقة ، ولا سيما أن هذه المناقشة كانت فى ساعة من الليل يهدأ فيها كل شىء . . . .

ـ قلت لها :

ثقى أننى سأقضى معظم النهار وشطراً من الليل مع الناس لأن طبيعة الوظيفة التى سأشغلها ستضطرنى إلى ذلك . . . قوم جلوس على سجـــاد نفيس ، وأمامنا أكواب

الشاى يتصاعد منها بخار رقيق شفاف ، يطوف بالوجوه الشاخصة إلىّ ثم يتصاعد ليغدو سراباً ! هذه هى الحياة فى حجرة شيخ التكية . . لكأنى أرى كل شىء ساكناً لا يكاد يتحرك . . . وكأنى لا أسمع إلا رشفات الشاى من أفواه ظامئة . . . بل كأنى لا أسمع إلا أزيزاً محتبساً فى جوف « صاموار » تركى قديم ، قد توسط الحجرة ، وصفّت حوله الأكواب . . . لا بل كأنى لا أسمع إلا مواء قطة الشيخ وهى واقفة تتمطى أو جالسة على ركبته . . . أترضيك هذه الحياة يا زوجتى العزيزة ؟ !

فتأملتنى زوجتى ونظرت إلىّ نظرة طويلة هادئة ، ثم افتر ثغرها عن ابتسامة لا أدرى أكانت مشوبة ببعض الإشفاق أم بعض العزاء ، أم كان فيها سخرية ، وقالت :

— تقول قطة الشيخ ، هل للشيخ قطة ؟

قلت :

. نعم فهى قطة من أصل فارسى كريم ، لها فراء ناعم أملس . . . عاشت هى وأسرتها فى التكية ، وربيت ودللت فهى تعيش على الأرائك الوثيرة . . .

فابتسمت وقالت :

– وعلى ركب الشيخ اللدنة . . !

فضحكت وقلت :

– لقد تعودت هذا . . . إنها قطة كسول ، ولكنها مع ذلك موضع الحفاوة والإكرام . . . وأخيراً فهل ترضيك هذه الحياة ؟

قالت :

– إنك جاحد يا صاحبى . . . تحبوك الأيام بالمال وبالحياة الهانئة الهادئة ، وتعيش فى قصر وثير الفراش وبجانبك أو على حجرك قطة فارسية جميلة ، وأمامك أكواب الشاى حول « السموار » ، وحولك قوم جاءوا ليسمروا معك. . . ومع ذلك تشكو وتصيح ! لتلك حياة أمير من الأمراء . . . اذهب فى الغد إن شاء الله إلى الوزارة .

قلت :

– سأذهب وأتعجل الورق . . ولكنى مع ذلك برم بهذا اللون من الحياة ، فهناك آداب لم أمرن عليها ولا أطيقها . . .

قالت :

ـــ أى آداب ؟

قلت :

ـــ آداب اللياقة والمجاملة التى سأفرغ لها فى مثل هذه الجلسات الطويلة . . . فمن شرب لا بد أن أقول له هنيئاً ، ومن عطس لا بد أن أقول له يرحمك الله ، وهكذا طول الوقت . . . أرأيتِ ؟

قالت :

ـــ وماذا يكلف هذا ؟ إنها أشياء بسيطة ، ومواضعات لا تلبث أن تعتادها . . . وسكتنا . فأردت أن أمزح فقلت لها :

ـــ أتعرفين التشميت ؟

ـــ أى تشميت ؟

ـــ تشميت العاطس ، شمّتَ العاطس أى قال له رحمك الله . . .

ـــ ما شاء الله ! وتقول إنك لا تحسنها ؟ !

ـــ لو عطستِ الآن لشمّتك !

ـــ لست فى حاجة لعطس أو تشمت . . .

— سؤال بسيط . .

— ماذا ؟

— ماذا يقال للذى يتوضأ ؟

— من زمزم طبعاً . . أفى هذا شك ؟

— كلا أنت مخطئة . . . وماذا يقال للذى يصلى ؟

— حرماً . .

— كلا أيضاً . فهل نسيت أننا سنكون فى الحرم بالقرب من زمزم . . . فلا لزوم إذن لهذا الدعاء . . أعرفت ؟

— سؤال أخير . .

— قل يا مولانا ، فهذا امتحان لم أعدّ له ، ومع ذلك فمن منا سيكون شيخ التكية . . .

— أنا بالطبع ، وما أظن أن مشيخة التكية مما يطالب به الجنس اللطيف . . . فماذا تقولين للذى يتثاءب ؟

— لا أدرى ، فماذا يقال لهذا أيضاً ؟

— لا يقال له شىء . .

— ولماذا ؟

— لأن التثاؤب من الشيطان ، والعطس من الرحمن . . . أعرفتِ ؟

ـ أفادك الله يا مولانا فقد أصبحت حجة . . . ومع ذلك فهل ستفرغ لمن تثاءب ولمن تمطى ؟

ـ يخيل لى هذا ، فأنا شيخ التكية ، فهل يجلس شيخ التكية فى ندوته وحواليه القوم ولا يجاملهم ؟

وسكتت صاحبتى وسكت ، وادعت النعاس وادعيت ، ولكنى سمعتها تقول بصوت خافت نصف مسموع :

ـ إنّ السجاد هنالك جميل . .

ففاجأتها وقلت :

ـ لا شك فى ذلك ! ولكن هل أبيع نفسى بسجاد ؟ !

وعادت فسكتت ، ولكنى سمعتها تهمهم :

ـ نحن فى حاجة إلى عشر قطع . . نعم عشر قطع على الأقل. . . وأخذت تحدث نفسها أو تحدثنى ـ لا أدرى ـ عن المقاسات المطلوبة والألوان المفضّلة . فاغتظت وقلت :

ـ أنت كثيرة الطمع ! ومن أين لنا ثمن قطع عشر من السجاد النفيس ؟

فتأملتنى ثم قالت :

ـ أنت ناظر التكية . . حضرة الناظر ! أنسيت ذلك ؟

اطمئن يا عزيزى فلن ندفع فيها شيئاً . . .

قلت :

وماذا نعمل بالسجاجيد العشر وشقتنا غرف أربع مفروشة بالسجاد كلها ؟

قالت :

ـــ أنسيت أنه سيكون لنا بعد عودتنا ڤيلا ؟

قلت :

ـــ آه نسيت ذلك . . . سيكون لنا إذن ڤيلا ؟ !

وفى الصباح بعد أن تناولت قهوتى قلت لها :

ـــ أنا ذاهب لوزارة الأوقاف !

فنظرت إلىّ مبتسمة ، ودعت لى بالتوفيق !

تجربة

شربنا القهوة، ودخنا ما دخنا من السجاير، وصديقى لا يشير إلى التكية من قريب أو بعيد، كأن أمراً جاداً جعله يعرض عن صوره التى يتخيلها : وهو الذى كان إذا التقينا يبدأ الحديث عنها قبل التحية فى بعض الأحيان . . . وأخيراً قلت له :

ــ ماذا هناك من جديد ؟

فقال :

ــ فيمَ ؟

ــ فى تكيتك . . .

ــ لا . لا يزال الورق تحت الإمضاء . . . ما أثقل هذا الموقف ! وليتنى كنت أستطع الفكاك منه . .

قلت :

ــ لا شك أنك تستطيع ذلك، فما عليك إلا كتابة ورقة صغيرة تقول للوزير فيها إنك عدلت . . .

ــ لست وحدى سيد الموقف . . . أنسيت الذهب

المتوهج هناك . . . هناك هاتف من نفسى يهتف بالغنى والثراء . وهناك صاحبتى التى لا تريد أن تدعنى . . . ثم هل أستطيع أن أعود إلى الجامعة ؟ !

الحق يا صديقى أنّ الموقف ثقل علىّ وكادت نفسى تزهق . . . حتى هذا الذى أرضاه لا يريد أن يرضى بى !! وكلما هممت أن أفقد الصبر عادت زوجتى فردته إلىّ بحيلة من حيل النساء . . . ورأيت أنه لم يبق إلا خيط واهٍ أستطيع أن أقطعه ، فاحتلت للأمر ، وقلت لا يأكل النار إلا النار ، وجرّب فعسى أن تنفع التجربة . . .

وفى الصباح نهضت من النوم وتثاءبت ، وقلت كأنى أحدث نفسى : اللهم اجعله خيراً ! ففتحت عينيها وقالت :

ــ خيراً إن شاء الله . . . ماذا ؟ أرأيت رؤيا ؟

قلت وأنا أفرك عينىّ مرة أخرى :

ــ خير . . . لا شىء ، لا شىء . . مرى لى من فضلك بكوب من الشاى . . .

ــ لكن ماذا رأيت ؟

ــ أضغاث أحلام . . .

ـ ما هى هذه الأضغاث ؟

ـ ماذا كان عشائى بالأمس . . . ؟

ـ لا أذكر ، ولكن ماذا رأيت . .

ـ أخشى أن تؤاخذينى . . . .

ـ أيؤاخذ النائم على ما يراه فى حلم ؟ يا لك من رجل طيّب القلب. . ! قل ماذا رأيت ، فلعله خير إن شاء الله . . .

ـ رأيت نفسى بمكة شيخاً للتكية . . . رجلاً فاضلاً موقراً . أقابل الناس بالبشر والترحاب ، ويقابلنى الناس بالتجلة والاحترام . . ولا أدرى لماذا رأيت نفسى لابساً بدلة طويلة ، وعلى رأسى طربوش من غير خوص . . وكان فى يدى سبحة لها شرابة ذهبية جميلة . . . كان القيظ شديداً، وكانت السبحة تتوهج ، وكان موسم الحج فى أوجه. وكنت لا أفتر عن الحركة ومقابلة الحجاج . . .

وهنا سكتُ، وتنهدت فقالت :

ـ ثم ماذا . . . إنها رؤيا جميلة، فلماذا تبتئس . . ؟ !

قلت وأنا أصطنع الأسف :

ـ وفى وسط هذا الزحام حدث أن تقابلت مع سيدة

من الحجاج . .

— سيدة ؟ ! من تكون وما اسمها ؟

— انتظرى قليلا فسأحدثك بكل شيء . . . كانت عائدة من رجم إبليس، وتعبت فأغمى عليها فأسرعت إلى مساعدتها حتى استفاقت وشكرتنى . . . ولكن الحديث اتصل بينى وبينها . . . آه يا زوجتى العزيزة إن الأقدار تلعب بنا حتى فى نومنا . . !

— وماذا قالت لك هذه السيدة، وماذا قلت لها ؟

— قالت إنها سمعت عنى منذ أول قدومها ، ورأت الناس هناك يثنون علىّ ، فتواضعت وحمدت الله على إكرامه لى برضا الناس عنى ، وأشرت إليها أننى إنما اخترت هذه الوظيفة لأكون بالقرب من بيت الله. فأساعد الحجاج وآخذ بيد المحتاج ، وعرّفتها أنى مؤتمن على كثير من الصدقات، آخذها سراً ، وأنفقها سراً، لا يعلم بذلك إلا الله وحده ، وهززت لها رأسى هزة التقىّ والورع الزاهد فى متاع الدنيا، وقلت ماذا نأخذ من دنيانا ياست هانم . ؟ لن ينفعنا إلا العمل الصالح . . .

وهنا سكتُ، وطلبتُ إلى زوجى أن تتعجل الشاى، فقالت :

ــ سيأتى الشاى بعد قليل ... ولكن أتمم أتمم ... ماذا كان بعد ذلك ؟ ولكنك لم تذكر لى اسم هذه السيدة ولم تصف لى شكلها ... أعرفت اسمها ؟

ــ نعم نعم .. اسمها آنجه هانم ..

ــ آنجه هانم ؟ ! اسم غريب ... أهى تركية ؟

ــ نعم هى شركسية الأصل ...

ــ أهى عجوز ؟

ــ لا إنها سيدة نَصَف ...

ــ تعنى أنها متوسطة العمر ، فكم تبلغ ؟

ــ لا أدرى بالضبط ولكنها كانت فى الأربعين تقريباً أو دونها ، وربما كانت تبدو أقل من ذلك ..

ــ أجميلة هى ؟

ــ أعفينى من هذا السؤال ...

ــ غريبة ! أنسيت أنك تقص علىّ رؤيا ؟!

ــ الواقع أنها رائعة الجمال ...

ــ وهل هى متزوجة أم ...

— مات عنها زوجها منذ عامين . . .

— أهى ثرية ؟

— ثراء فاحش . . .

— قل لى ما حدث بالتفصيل بينك وبينها ، وماذا كان بعد مساعدتك لها حين إغمائها واتصال الحديث بينكما . . .

— معرفة تدرجت إلى صداقة .

— ثم . . .

— ثم انتهت الصداقة إلى شيء أكثر من الصداقة . . .

— إلى زواج ؟ ! قل هل تزوجتها . . .

— تقريباً . . .

— تقول تقريباً ؟ كيف ؟ أتزوجت هذه السيدة حقا ؟

— فى المنام . . .

— ولكن كيف . . . ألا تفضلت فأخبرتنى بالتفصيل . .؟

— أعجبها منى تقواى وأمانتى ، فسألتنى وهى موشكة على العودة بعد انتهاء الزيارة : هل أقبل أن أكون وكيلاً لدائرتهم . . .

— دائرة . . ألها دائرة ؟ !

— نعم هى وخالتها العجوز كلبياظ هانم وآخرون أكثرهم

انقرض ، ولم يبق من العائلة إلا بقايا . . . وقف يبلغ الألفين من الفدادين . . .

— وبعد أن صرتَ وكيلاً لهذه الدائرة ماذا حدث . . ؟

— صرتُ وكيلا فى كل شىء . . . صرتُ زوجاً . . .

— ألم تفكر فينا فى كل هذا . . .

— لا ، فقد أنستنى هذه الحياة الجديدة كل شىء . . .

— ولكنك لم تذكر لى بالتفصيل ماذا كانت تقول لك وماذا كنت تقول لها . .

— لا أذكر الآن . .

— ثم . . ؟

— ثم استيقظت على نفير سيارتنا الفخمة ، وحين فتحت عينى عرفت أنها سيارة جارنا ذاك الذى تعود أن يزعجنا بنفير سيارته . . . ألا تفضلتِ فتعجلت الشاى . . . ؟ !

ونظرت إلىّ زوجتى نظرة فاحصة خشيت معها أن تتبين تدليسى وكذبى ، وفرحتُ حين تبينت أنى نجحت وأنها لم تشك فيما قلت . . . ولم تشأ أن تفصح لى عن أثر هذه الرؤيا فى نفسها ، وإنما ابتسمت ابتسامة ساخرة وقالت :

ـ أهذا كل شيء؟ ! حقّق الله أحلامك !

فوخزتنى هذه الكلمة، فأردت أن أمضى فى التجربة إلى آخرها فقلت :

ـ أرأيت أن هذه الوظيفة تفتح لى منافذ غريبة أخشى منها ؟ !

فقالت :

ـ أواثق أنت أنك كنت فى سبات عميق حين رأيت ما رأيت ؟

ـ لا أستطيع أن أجزم بذلك . . ولكنها على كل حال رؤيا نائم . .

ـ أو ربما كانت خيالات حالم وأمانى هائم ؟ !

وسكتنا على ذلك ، وحين هممت بالخروج عجبت لها ، فقد رجتنى وهى تصحبنى إلى الباب أن أمر إذا استطعت على وزارة الأوقاف لأتعجل الإمضاء . . . أرأيت ؟

وهكذا حاولت أن أحتال على نفسى وعلى صاحبتى لعلى أعرض عن هذه الوظيفة فأريح ذهنى من هذه الحياة الغريبة ومن تلك الصور المتلاحقة ، احتلت مما صرت

أصوره لنفسي وأصوره لزوجي ، فما أراحتني نفسي ، وما أراحتني زوجي . . . !

وأخيراً أسقط في يدي . وقلت لابدّ مما ليس منه بد ، فإذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون ، ولم يبق لي إلا أن أؤهل نفسي وأعدها لما أنا مقدم عليه مهما كلفني ذلك .

المدير العام

لقينى فى تلك الليلة ضاحكاً مستبشراً كأنه وجد ما كان يفتقده ، أو كأنه اطمئن من هذا القلق الدائب الذى هو فيه ، وقدّرت أن الوزير لا بد أن يكون أمضى الطلب ، فسألته فى ذلك فقال : كلا ! لا يزال معروضاً ، ولا زلت أنا فى هواجسى وظنونى . . . على أنى رسمت لنفسى الطريق وخلصت إلى الغاية .

قلت :

– أى طريق وأى غاية ؟

قال :

– ليست هذه الوظيفة من الوظائف الدينية فى شىء . ولا هى تحتاج إلى وجه رضوان أو تقوى الملائكة . . . إنها تحتاج أول ما تحتاج إلى رئيس حازم يحسن الإدارة ، وبدل أن أجهد نفسى فى استعارة وجه رضوان فسوف يتيسر لى أن أستعير وجه موظف قديم . . .

قلت :

ـ وما وجه هذا الموظف القديم وما صفاته ؟

قال :

ـ لا شك أنك تعرف ما أريد فلا تتخابث . . !

قلت ضاحكاً :

ـ أيهم تريد ؟ صاحب التكشيرة الصفراء ؟ !

ـ بل صاحب الضمير الأصفر !

قلت :

ـ وهل رأيته فى المرآة ؟

ـ نعم رأيته بعينى ، برأسه الأصلع ، ووجهه الجامد ، ونظارته المدلاة على أنفه ، ونظراته الأميرية . . .

فضحكت من هذا التعبير وقلت :

ـ أفى نظرات الناس حكومية وأهلية ؟ !

قال :

ـ أنسيت أننا كنا نوزع على الناس حتى أسماءهم ؟ ! ولكن دعنا من هذا . فقد انتهيت إلى أن أكون فيما بقى لى من الحياة موظفاً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى قديم حين أشغل

وظيفة ناظر التكية تلك . . . ولقد محوت الصورة الأولى من المرآة ، صورة رضوان ، واستبدلتها بصورة رجل كهل متأنق بعض الشيء فى ملبسه ، يتحرك إذا تحرك بتؤدة ونظام ، وينطق إذا نطق بالقوانين واللوائح والأحكام ! كم رأيت نفسى فى هذه المرآة جالساً وأمامى على مكتب مدير التكية كثير من الدوسيهات والأوراق ! وكم رأيت نفسى جالساً على كرسى من هذه الكراسى المتأرجحة أتطوح إلى أمام ، وأتطوح إلى خلف . وبلغ بى الأمر أنى كنت أسمع كرسى المدير يصوّت إذا تحرك . . .

ــ لقد كان من الخير أن تظل « رضوان » . أما وأنت ذاهب إلى هناك لتغدو هذا الرئيس الثقيل ، فلا حرك الله يد الوزير بالإمضاء . . . !

فنظر إلىّ متجهماً وقال :

ــ أأنت أيضاً تريدنى أن أقضى حياتى وأنا رضوان ؟

قلت :

ــ وهل بعد طيبة الإنسان وطهارة قلبه وأمنه وطمأنينته شيء ؟

قال وقد ابتسم ابتسامة شاحبة فيها شيء من سخرية :

ــ لا يا سيدى ! فقد مللت الجلوس بالقرب من الباب ! ! لقد انتهيت إلى أننى إما إلى داخل الجنة أنعم فيها طلقاً حرًّا، وإما إلى قرارة السعير ! !

ــ ماذا تقول ، وأى شيء تعنى ؟ !

ــ لا شيء لا شيء . . . فأين ذهب بنا الحديث ؟ كنت أقول لك إنها وظيفة إدارية ، فأردت أن أضع لنفسى برنامجاً أسير عليه حين أكون هنالك رئيساً . . . أعنى . . .

وسكت صديقى برهة، وأطرق كأنه لا يزال حائراً، ونظر إلىّ كأنه يطلب منى أن أوهمه بأنه رئيس إدارى ممتاز ، ولكنى نظرت إليه نظرة حطمت هذا الأمل فى نفسه ، فقال :

ــ أصغ إلىّ يا صديقى ! فما أحب أن أزكى لك نفسى أو أبرّر لك حماقتى ، ولكن ذلك شيء أتخيله لأشفع لنفسى عند نفسى ! أنا أعلم أنك ستسخر منى حين تعلم أنى أريد أن أكون رئيساً إداريًّا قوى الشكيمة لأن كل مظهر من مظاهر حياتى لا يدل على ذلك ولا يؤهل له . . . . والحقيقة أن الحياة الطويلة التى عشناها فى الكلية لم يكن من

طبيعتها معاملة الناس والاتصال بهم ، لكن هذه الوظيفة الجديدة ستقوم قبل كل شيء على ما سيكون بيني وبين الناس من صلات، وبيني وبين الوزارة من مكاتبات تحتاج إلى حزم وإدارة . . . سأصطنع الحزم والإدارة بالتكية كما اصطنعت العلم بالكلية ، وهذا كل شيء !

وابتسمت لقوله هذا ، ونظرت إلى الأفق الذى كان ينظر إليه ، فإذا سحب وادعة تسير فى رفق وعليها غلائل ورديه شفافة، فصرنا نتابعها بعيوننا وقد توقفنا عن الكلام . . . أما أنا فقد كنت أرى صديقى سحابة من هذه السحب الرقيقة الناعمة التى تسير حيث سيّرتها الريح ، وتمطر إذا حدتها الشمال أو مستها قمة باردة !

وسمعته يقول :

— ويلاه يا صديقى ! لم أتعود طول حياتى أن أكون صاحب الأمر فى شيء ! فإذا شغلت هذه الوظيفة بالروح التى أحيا بها فى بيتى أو كليتى فالويل لى ! لكنى مع ذلك بدأت أمرن على مظهر الرئاسة وسترى !

وأشفقت عليه ، ولمت نفسى على أن أبديت له الشك

فيما يزعم لنفسه من حزم وعزم ، فقلت له :

ــ لعلك مخطىء فى هذا يا صاحبى ، وما أرى إلا أنك ستكون رئيساً حازماً قوى الشكيمة ، نافذ الكلمة ، مطاع الأمر . وقد يظهر لى أنك موشك أن تعوض كل شىء فاتك من هذه الصفات . . . ما أظن اصطناع الحزم والعزم أمراً مستحيلاً على مثلك ، وإنها لتجربة على كل حال . . . ومع ذلك فمن قال إن الرؤساء الحكوميين لهم جميعاً تلك الصفات من الحزم والعزم وقوة الإرادة وحسن الإدارة ؟ ! كلا يا صديقى كلا ! فهوّن عليك ، ففى مظهرك على الأقل الكثير من ذلك !

وبعد قليل من قولى هذا نظرت إليه فإذا به ينهض واقفاً ويضع يده فى جيب صدريته ، فتأملته فإذا هو مقطّب الجبين كأنما أراد أن يبدو رجل الإدارة المطلوب . وأخذ يذهب ويجىء فى حجرة المكتب كأنما قد أصبح مديراً لشركة ضخمة من الشركات الصناعية ، ثم أخذ يحدثنى وهو يخطو مقطباً مفكراً ، وقال

ــ لقد فكرت فى النظام الإدارى الذى ستكون عليه

التكية . . . لا بد أن يكون هناك على الأقل سكرتير وكاتب أو كاتبان ، وربما كان هناك بعض الموظفين غير هؤلاء خارج هيئة العمال . . . هذا هو الطقم ، وهؤلاء هم رجال دولتي الصغيرة . . ماذا يعمل هؤلاء الموظفون هناك ؟ سيرون الفرق بين عهد وعهد ومدير ومدير ! ! لا بد أنهم سمعوا بترشيحي ، ولا بد أنهم يتحدثون كثيراً عني في هذه الأيام . . أخشى أن يكون المدير طمأنهم وقال لهم إني رجل طيب وابن حلال ... لشدّ ما هو واهم في ذلك . . . أيحسبني كما عرفني من قبل ؟ !

وأردت أن أضحك ، لكن هيئة صديقي وما أخذ نفسه به من جد لم يدع لي فرصة للضحك ، ونظرت إليه فكأنما استحال حقًّا إلى مدير يبرق ويرعد ، ويهدد ويتوعد ، وتوقف عن الكلام ، ونظر إلى الأفق نظرة طويلة ، ثم التفت إليّ وقال :

— حين أذهب إلى هناك سأفعل الشيء الكثير ! سوف يعلم الناس أن تكيتي لا كالتكايا ! ! سأغير من أماكن الموظفين قبل كل شيء ليشعروا أنهم تحركوا ! أظن أنه

يكفى فى ذلك أمر إدارى . . . أليس كذلك ؟

ثم نظر إلىّ وابتسم وقال :

ـــ أصحيح أنى سأصدر أمراً إدارياً ؟! هذا شىء غريب علىّ حقاً ! ولكن لا بد من ذلك لأن مسئولية الرئاسة تقتضى أكثر من هذا . . . لاخجل بعد اليوم ولا حياء ، ولا شفقة ولا هوادة ، ولا لين ولاضعف ، لابد من حزم وعزم ، وإرادة نافذة وأعصاب من حديد ، وإلا فكيف ألقى الهيبة فى النفوس ، وكيف يسير العمل منتظماً دقيقاً كالساعة . . .

فضحكت وقلت :

ـــ كساعة جامعة فؤاد الأول ! !

فابتسم وقال :

ـــ أخشى أن أسمع دقاتها هناك ! !

واستطرد قائلاً :

ـــ ليس لدى فكرة واضحة عن نوع العمل هناك . . . ولكنى سأنظر من جديد فى توزيع العمل ، وأقسمه تقسيما جديداً ، تقسيما يتفق مع عهدى الجديد ، عهد الإصلاح والمسئولية !

فلم أتمالك نفسى من الضحك ، وقلت حين سمعت ذلك :

– وتقول إنك لم تمرن على الرئاسة من قبل ؟! أىّ موظف قديم تحت جلدك ؟ ! كنت إلى الأمس كرضوان . .

فقاطعنى قائلا :

– واليوم أنا شيطان . . . أى شيطان !

قلت :

– ولكن الشياطين لا تذهب بالقرب من بيت الله . . . أنسيت ذلك ؟

فوجم طويلاً وقال :

– كلا لم أنس ذلك ، ولكن تقوى الله شىء ، ونظام التكية شىء آخر . . . أرجوك يا صديقى ! لا تفسد علىّ مشروعاتى . . .

وضحك ضحكة ساخرة من ضحكاته القديمة العابثة ، وقال :

– لا شك أنه سيكون لى سعاة ، ساعٍ أو ساعيان ، وربما أكثر من ذلك . . .

قلت :

ـــ عفواً يا صاحب السعادة ، وماذا تصنع بالسعاة هناك ؟

ـــ يجلسون أمام باب حجرتى . . .

ـــ ولماذا ؟

ـــ لأنى مدير ، ولأن المدير لا بد أن يجلس أمام باب حجرته ساع أو سعاة . . .

ـــ ولكن العمل هناك لن يحتاج إلى ذلك . . .

ـــ أى عمل ؟

ـــ العمل فى التكية . . .

ـــ ومالى أنا وهذا ، ومالى أنا وطبيعة العمل ؟ ! أى أستاذ أبله أنت ؟ أنا يا حضرة الأستاذ الجامعى المحترم مدير ، مدير قبل كل شىء ، والمدير كما جرت العادة وكما يقتضيه النظام الحكومى لا بد أن يكون له بعض السعاة ، سواء كان فى حاجة إليهم أم فى غير حاجة ، وقد ترى على باب بعضهم من السعاة من على ذراع بعضهم شريط ذهبى واحد ، وترى من له شريطان ، ومن له أكثر من ذلك . وماذا أنت قائل إذن إذا عرفت أنى سأكون فى حاجة إلى سيارة حكومية ؟

ـــ وبماذا تبرر طلبها ؟

— لن تعزنى الأسباب وسترى . . . سيارة وسعاة ، وحقيبة حكومية ضخمة بها الأوراق . هذه الأشياء من مستلزمات الرئاسة وطبيعة الوظيفة . . . وهل نسيت أنه يجب أن نظهر بالمظهر اللائق هناك ؟ !

قلت وقد بدأت أغتاظ :

— أكل هذا فى تكية ؟ !

ويظهر أن كلمتى هذه كانت قاسية ، فقد رأيته يبتلع ريقه، ويغمغم ويدير فى نفسه همًّا تحتلج به شفتاه ، وعاد فنظر إلىّ نظرة سخط وتحدٍّ وقال :

— ماذا تقول ؟ أعدت لتقول تكية ؟ ! من قال لك إنى سأبقى على هذا الاسم ؟ ألا زلت تسميها تكية ؟ لا شك أنى سأغير هذا الاسم القديم البالى الذى يوحى بمعانى كثيرة . . . كل شىء قابل للتغيير يا صديقى، فلا علىّ إذا غيرته إلى اسم من هذه الأسماء المستحدثة، وهى والحمد لله كثير . . . لقد اقترح على أستاذى بعضها وإن كان تحت حديثه سخرية . . . كل ما فى الأمر أنى لم أنته بعد إلى الاسم الذى سأقترحه على الوزارة . . لقد فكرت فى هذا كثيراً ،

وطالما سألت نفسى : بماذا ينبغى أن تسميها ؟ دار البر ؟ اسم لا بأس به وإن كان متواضعاً بعض الشى ، وأكون أنا مدير دار البر . . . ! لا لا ، فهذا ليس شيئاً . أسميها إذن المعهد الخيرى المصرى بالحجاز . . . اسم أضخم وعنوان أفخم ، وهو أقرب إلى الصيغ الحكومية والأسماء الأميرية . . . ! ولكن خير منه أن تسمّى : « المعهد الخيرى المصرى بالمملكة السعودية » وأصبح أنا « مدير المعهد الخيرى المصرى بالمملكة السعودية . . . » فأنت ترى يا صديقى أن لفظة « تكية » وما تحمل فى طياتها من إيحاء يشعر بالذى تعرفه ستموت مع الزمن إذا أطلق عليها اسم من هذه الأسماء . . . ومَن يدرى؟ فقد يصبح عما قريب مصلحة من المصالح . . . نعم مصلحة الشؤون الخيرية مثلاً !

وهزّ رأسه كأنما يتحدث جاداً ، وقال :

— ولم لا ؟ إذا اتسع اختصاصها وزادت ميزانيتها فإنى زعيم لك أننى ساصل بها لتكون مصلحة . . .

قلت وقد أردت أن أعيده لصوابه ، أو على الأقل أذكّره بأن الموضوع لا يزال فيه جانب من المزاح :

— ما أظن الناس سينسون كلمة « التكية » أو يسقطونها من وعيهم مهما غيرت من اسمها واختصاصها وميزانيتها . . .

فقاطعني محتداً وقال :

— الناس . . . الناس . . . أنت دائماً تقول الناس ! مالي أنا والناس ؟ قلت لك إنما أنا مدير ، والأمر في هذا بيني وبين الوزارة ، فإذا وافقت الوزارة على تغيير الاسم فسيكون لي لقب يكتب تحت اسمي في سطر طويل مكون من . . .

قلت :

— من ستة ألفاظ على الأقل ، ولا شك أنك حين تخرج إلى المعاش ستضيف إليه « سابقاً » . . . ما شاء الله !

ولكنه هز رأسه ولم يحر جواباً ، وبدا أنه ممتعض مني بعض الشيء .

والحق أنني وجدتني أصبحت أميل إلى لذعه بمثل هذه السخرية ولا أدري لماذا ، فلعلني كنت أخذت أشفق عليه من هذا اللون من الحياة الذي هو صائر إليه وآخذ نفسه به ، وبدأت أحاول أن أثنيه عن هذه الوظيفة ،

فقد حسبت أن الأمر فى بدئه لا يعدو أن يكون تغييراً لمدة قصيرة يعود بعدها صديقى إلى كليته ليستأنف حياته العلمية بيننا ، فإذا هو يريد أن يحيل تلك الصور إلى حقائق وإلى عمل ، وإذا هو جاد فى هذا كل الجد، وبالغ فيه إلى هذا الحد ! وشر ما فجعنى فيه أن هذه الوظيفة بدأت تسلبه ضحكه وسخريته وعبثه الفنى الطلق ، وتريد أن تستبد به وتحيله إلى هذه الصورة ، صورة المدير الإدارى الذى ينشد المظاهر ويغالط نفسه من أجل الحصول على الألقاب . . .

ومع ذلك فلم تثنه سخريتى فقد ظل متشبثاً برئاسته المنتظرة وسيطرته المرتقبة ، وتركته وأنا أدعو الله أن يزيح عن نفس صديقى هذه الغمة ، وينجيه من هذا البلاء !

التحول

لقد حدث ما كنت أخشاه وبدأت نفس صديقي تتلف . . . !

لقيته بعد ذلك كأنه كان مستمرًا في آخر حديث كان بيننا . . . هذا الحديث الذى كان عن نظام التكية وموظفيها . . قال :

— أتظن أني سأسكت ؟ بعد أن آخذ موافقة على تغيير الاسم ستجدّ أمور وأصل إلى أشياء ! ثم توقف قليلا وهز رأسه وقال :

— لا أدرى هل تغيير اسم التكية يجب أن يكون بقرار من الوزير أو من مجلس الوزراء ؟ على كل حال سيتغير الاسم عاجلاً أو آجلاً لأن اختصاصات التكية ستتغير وعملها سيتسع . . .

وهنا ابتسمت ، فاغتاظ وعاد يقول لى :

— إنك يا حضرة الأستاذ كما قلت لك غشيم حكومة

أو غمر إدارة . . . فإذا حدث وأصبحت يوماً من الأيام مدير تكية مثلى ، أقصد مدير مصلحة الشئون الخيرية ، فيجب أن تعدّ لهذا المنصب الخطير خير إعداد كما تعد لدرسك تماماً . . . إذا كنت مديراً مثلى ففكر أول ما تفكر فى تكبير مصلحتك أو إدارتك بتفريعها إلى أفرع كثيرة وأقسام متعددة ، وأكثر من الأسماء ، وفخم من الألقاب ، ووزع الاختصاصات ، والألقاب فاجعل بينها انسجاما ، والدرجات فاجعلها كالسلّم ، وإن استطعت فليكن كسلم المطافئ ! وأخيراً ستجد وزارة المالية نفسها أمام الأمر الواقع ، ستجد أنها أمام مصلحة كبيرة خطيرة لها هذه الألقاب الفخمة والميزانية الضخمة . . . أفهمت ؟ ! إن هم وزارة المالية كما عرفت لا يتعدى الرجاء لهذه المصلحة أو تلك ألا تغلو فيما تطلب من اعتماد لأن الميزانية مرهقة . . .

وربما كان أهم من ذلك اللجنة المالية . . . أتعرف اللجنة المالية بمجلس النواب ؟ فلا تنسى أن تعدّ للأمر عدته من هذه الناحية ، لأن هذه اللجنة قد تشك فيما تقول ، وتتهمك بالإسراف والمبالغة ، وترى أن مصلحتك لا تعدو أن تكون

تكية من التكايا . . . وأنصحك لوجه الله لا تنتظر حتى يتسرب الشك إلى نفوس أعضائها المحترمين فيبطشون بميزانيتك بطشة تأتى على تكيتك ! فحاول أن تخلق الأسباب وتوجد المبررات ، وانفخ فيها من روحك حتى ينقطع نفسك ، وأظهرهم على ما تقوم به مصلحتك من جلائل الأعمال وجسيمات المهام ، وكن فى هذا كيّساً لبقاً . . . أفهمت ؟ !

وعجبت فما الذى أوحى لصديقى بهذا كله ، وكيف تغير إلى هذا الحد ، وقلت له :

ـــ أأنت الذى تقول هذا حقًّا ؟ أنت الذى لم تكن تعرف إلى الأمس القريب كيف تملأ استمارة ؟ !

قال :

ـــ نعم أنا ذاك ! أنا ذاهب إلى هذه التكية المجهولة . . . إلى هذا المطبخ الكبير . . . إلى هذه الوظيفة الحقيرة . . . سترى أنى سأصنع من هذه التكية مصلحة من المصالح الحكومية الخطيرة الشأن . . سأكتب التقرير تلو التقرير ، وأوسط من أستطيع أن أوسط ، وسأكذب على نفسى وعلى الدولة ، بل سأكذب على الله حين أخلق الأسباب المبررة

التى تؤدى إلى تكبير التكية وتوسيعها . . . سأنشىء فيها إدارات كثيرة مختلفة ، حتى تنتهى إن شاء الله لتكون كما قلت لك .

قلت وقد بلغ بى الغيظ نهايته :

ـ أى إدارات وأى اختصاصات ؟ أكل هذا فى تكية أم جننت يا صديقى ؟ فلم يعبأ بقولى هذا ومضى يقول :

ـ نعم سيكون ذلك كله فى تكية ، وسترى يا حضرة الأستاذ المحترم . . . سيكون هناك أرشيف وإدارة مستخدمين وحسابات إلى آخره . . . وكل إدارة من هذه الإدارات سيكون لها أقسام ، وكل قسم من هذه الأقسام سيتفرع إلى فروع ، وكل فرع إلى أقلام . . . أتضحك ؟ ! ولكن صدق أو لا تصدق ، فقد يظهر أن أساتذة الجامعة كلهم مثلك . . .

ـ كلهم ماذا ؟

ـ مثلك !

ـ ماذا تقصد ؟ !

ـ ألستم تحبون على الألقاب والدرجات . . ؟ ولكن

ما علينا من هذا فلم أعد فى الجامعة، وإنما أنا مدير تكية . . .

وأطبق صديقى عينيه ، وغاب عنى فترة لا أدرى أين ذهب بنفسه فيها ، وعاد فنظر إلى يسألنى : فيم كنا نتحدث ؟

قلت :

— كنت تنشىء الإدارات ، وتنسق الدرجات ، وتؤقلم الأقلام ، وترقم الأرقام . . .

قال :

— حسبك . . . نعم نعم ! أرشيف . . . مستخدمين . . . حسابات . . . توريدات . . . لا بد من حركة . . . لا بد من دورة .. لا بد من ذلك كله فى التكية، وإلا ما كان لنا هذه الصبغة الحكومية . . !

وهنا التمعت عيناه ، وأشرق ثغره ، وابتسم ابتسامة عريضة فيها شىء من الخبث ، وطلب أن تعدّ لنا قهوة ، وقام يمشى فى الغرفة، وعاد إلى مكانه بحركة آلية غريبة ، ثم أخذ يتحدث وكأنما كان يحدث نفسه دون أن ينظر إلىّ ، فسمعته يقول :

— الأموال المعلّاة ! ! أمانات . . . مصروفات منظورة ومصروفات غير منظورة ! تجاوز البنود . . . مشروع

الميزانية . . . جميل جميل . ! لقد عرفت كل شيء وحذقت الصنعة . . . إدارة التوريدات . . . لا شك أننا سنطبخ طعاماً كثيراً كل يوم . . !

وهنا أخذ يضحك كالمعتوه، وصفق بيديه يطلب القهوة، ثم استأنف الحديث لنفسه وهو يضحك ويهز رأسه ويقول :

— نعم نعم ! إدارة المطابخ . . . مدير إدارة المطابخ . . . والمتعهدين وعطاءاتهم . . ! جميل جميل !

خلا لك الجو فبيضى واصفرى

ونقّرى ما شئت أن تنقرى !

ثم أخذ صديقى يردد هذا الشعر مسروراً به، تارة يوقعه غناء، وتارة أخرى صفيراً ، وثالثة همهمة ، ورابعة غمغمة ، ثم سكت وكأنى لا زلت أسمع نفسه تغمغم وتهمهم ، ثم التفت إلىّ وقال جاداً :

— ليس لدى فكرة واضحة كل الوضوح عن إدارة التوريدات تلك . . ولكنى أعلم أنها لرصد المبيعات . . أردت أن أقول المشتروات، فنحن نشترى هناك ولا نبيع ! ولا بد أن نشترى بفواتير . . . جميلة جداً هذه الفواتير !

ولا شك أننا سنضطر لعمل عطاءات ومناقصات تمشياً مع القانون المالى. . . حسن جداً ، فلا بد من العطاءات ، ولا بد من فض المظروفات ! ! سيكون رئيس إدارة التوريدات عندى فى الدرجة الثالثة على الأقل ، وإذا جاء التنميق وهو تنسيق التنسيق وملحق التيسير ، فقد تحول هذه الدرجة تحولا تلقائياً إلى الثانية . . . على كل حال سيوضع مؤقتاً على الثالثة . . .

وهنا أخذ صديقى يتشمم بأنفه لا أدرى ماذا ، ثم قال :

— لا أعلم أين تقع إدارة المطابخ فى التكية ، ولكنى سوف أجعلها بعيدة عن إدارة التوريدات، فلا ينبغى أن يشم كتبة الحساب رائحة الشواء ! ! أليست فكرة مبتكرة ؟ !

قلت وقد فاض بى ، وأردت أن أذكره بأنه ما زال يمزح :

— ألم أقل لك إنك أصبحت موظفاً قديماً من أخمص قدمك إلى القطب الشمالى من صلعتك ؟ !

لكنه لم يهتز ولم يضحك ، وهو الذى كان يلقف النادرة

ويتبعها بأحسن منها . . بل ظل يتحدث عن مشروع الميزانية الذى سيقدمه ، ويحدثنى عن الدرجات التى استطاع أن يحصل عليها هذا العام ، وكيف استطاع أن يقنع وزارة الأوقاف ووزارة المالية ، وأخبرنى متأسفاً أنه اضطر لرفع درجته إلى درجة مدير عام حرف « ا » لأنه برفعه من منصب المدير ـ بصرف النظر عن شخصه ـ إنما يرفع من المصلحة كلها . . .

كان صديقى يحدثنى بهذا على حين كنت أحدث نفسى أنا الآخر فأسأل : أهذا جد أم هزل ؟ ! كأنى أصبحت أنا الآخر أقول إنه جد كلّ الجد ! فقد يظهر أن صديقى أمعن فى العبث بى حين كان يعبث بنفسه ، حتى أحالنى إلى مصدق يرى أن ما يقوله شىء طبيعى معقول !

رجل الأعمال

ما زال صديقى يتحوّل ويتحول، على حين كان ورق تعيينه لا يزال رهن إمضاء الوزير ، ما زال صديقى قريباً من النار المشبوبة المتوهجة يغذيها بكل ما تقع عليه يده من حطب ، حتى همّ أن يلقى فيها بنفسه لتظل مشبوبة متوهجة يأخذه أو يأخذ من حوله من أهله وبنيه ضوؤها ، ويدفئه أو يدفئ أهله وبنيه سعيرها ! والعجيب أنه كان يرتعد رعدة المقرور وهو يتصبب عرقاً ، ويخشى هذه النار ولكنه يمد يديه نحوها ! !

لم يكتف بما وصل إليه من مركز ممتاز إذ أصبح كما زعم لنفسه فى هذه الدرجة الحكومية العالية ، ولم يكتف بما سيتيح له هذا المركز من غنى ووفر خطّ طريقة فى ضميره حين أقام إدارة التوريدات وحلم حلم العطاءات . . .

زرته فوجدته تلك الليلة فى صورة أخرى كان طبيعياً أن ينتهى إليها ، فقد بدا لى كأنه رجل من رجال الأعمال

الحكوميين ! أعنى هؤلاء الموظفين الكبار الذين يشتركون فى تأليف الشركات ويستثمرون الأموال وهم فى مراكزهم الحكومية يستغلونها لهذا . . .

نعم فقد ظل تلك الليلة يحدثنى عن مشروعاته التجارية بالحجاز حديث الخبير العارف ببواطن الأمور ، حدثنى عن شركات سينشئها وكيف سيستغل النفوذ ويلعب بالناس ، ولولا أنه طلب إلىّ ألا أذيع سره من أجل مركزه لذكرت ما حدثنى به . . . ولو قدّر له هذا الذى يرسمه لنفسه لكان أغنى رجل ، ولرأى الناس موسم الحج على صورة لم يشهدوا مثلها !

يا لله ! فلقد أصبح رأس صديقى بنكاً من البنوك ، هذا الرأس الذى ظل لا يعرف الأرقام طول حياته ، تحوّل الآن إلى شركة من الشركات بعد أن كان لا يعلق به إلا الأوهام المعنويات . . . تحولت أحلام الشاعر إلى واقعية التاجر ، وتحول ضمير الفنان إلى حجر من صوّان !

كان يحدثنى وهو مقطّب قليلا ، وكان كلامه مركزاً أكثره بالأرقام ، كل كلمة منه كأنها رقم يكتبه على شيك !

ونظرت فإذا بى كأنى أتحدث إلى رجل غنى عريض الغنى صاحب شركات ضخمة . . . لكن الذى أخافنى منه حقاً هو هذا الظلام فى نفسه والالتواء فى ضميره ، ظلام يقربه من الجريمة ، والتواء كان خليقاً أن ينفرنى منه فلا ألتقى به بعد ذلك . فلقد أخبرنى أن هناك أموالاً كثيرة يسلمها بعض الحجاج الأغنياء لناظر التكية ليوزعها بمعرفته على المستحقين . . . قلت حين سمعت هذا :

— أموال كثيرة فى يديك توزعها على من شئت دون أن يكون عليك رقيب ؟ !

قال :

— نعم نعم ، عدة مئات من الجنيهات كل عام آخذها سرًا وأنفقها سرًا، لا أسأل فى هذا ولا أحاسب. . . أفهمت ؟ أوعيت ؟ فلوس كثيرة آخذها من بعض الأغنياء الحاجين لبيت الله . . . هناك فى حجرة من حجرات التكية الوثيرة الأثاث يجلس معى هذا المهراجا أو ذاك مثلا نشرب الشاى ونتحدث ، ثم يعطينى كيساً مملوءاً بالروبيات الفضية لتكون حسنة مستورة ، فآخذها منه وأسلم عليه ، ثم أخلو إلى نفسى

وأفتح الكيس ، وأستجلى ضوء الفضة الذى هو أجمل من لون الفجر ! أفهمت ؟ نعم أخلو إلى نفسى، وأغفو إغفاءة قد تَمَن حلماً جميلا ، وقد تكون رؤيا مفزعة أهد فيها نفسى هدًّا عنيفاً قاسياً لأقيم من أنقاضها عمارة مثل عمارة إيموبليا ! ! وأخيراً أجلس إلى مكتبى وأمدّ يدى ببطء وتثاقل لأضرب الجرس كى آمر الحسابات لترصد هذا المبلغ أو بعضه فتعليه على الإيرادات . . . قلت وقد أفزعنى منه هذا الذى يقول :

ـ تقول هذا المبلغ أو بعضه . . ؟ !

قال :

ـ نعم فماذا فى هذا ؟ أليست لدينا مصروفات غير منظورة ؟

وقطع صديقى حديثه وصار ينظر إلى الأفق ويبتسم ، وعاد فنظر إلى وقال :

ـ لقد تخففت من هذه المخطوطات التى كنت أحقّقها ، وهذه الكتب التى دفنت نفسى حيًّا بينها ! سأستعيض عن هذا كله بدفتر صغير واحد . . . قلت :

ـ هو دفتر الشيكات بالطبع !

انتهى صديقى إلى فلسفة مادية قاسية كانت موشكة أن تفرخ فى نفسه بعد أن باضت هذا البيض الذى يشبه بيض الأفاعى . . . خفافيش سود عليها غلائل من ذهب تهرب من الضوء فلا تهتدى إلى أوكارها ، فتضرب بأجنحتها على هذا القلب المسكين فيهفو ويصفق ! ! أ إلى هذا الحد يتحول رضوان إلى شيطان ؟! أين هذا الصديق من نفسه التى كنت أعرفها . . . ؟ لقد كان يصرخ فى وجهى ويقول :

— انتهت يا صديقى هذه المثالية ، وشيعت هذه الحياة الخيالية... مالى والشعراء الذين ماتوا ومالى ولأشعارهم . . . مالى ولهذه المعانى التى نسجوها من أوهامهم ، وهذه الرؤى التى صنعوها من أحلامهم ؟ ! أى حماقة أخذت نفسى بها سنوات طويلة حتى تقضى الشباب وكدت أدلف إلى الشيخوخة ؟ ! ومالى وللناس أظل أنسل إلى نفوسهم وأقرأ ما فى وجوههم لأرسم فيها صوراً لا تفيدنى شيئاً ؟! مالى وما فيها من دلالات وما هم عليه من حمق وغفلة ؟ ! وجوه الناس وصورهم أصبحت عندى أرقاماً بعضه أمامه صفر ، وبعضه

صفران، وبعضه أكثر من ذلك ، وبعضهم أيضاً ليس فيه إلا أنفه الذى لا يساوى شيئاً ! !

أما هذه الفتاة السكرى التى حسبتها تقدر الشعر وترق للغناء فوقفت أمام شرفتهاوهتفت ، فنزلت فصنعت بى أمام الناس ما صنعت ، فسوف يكون لى معها بعد اليوم شأن آخر ! لن تصفعنى بعد اليوم ، ولن تسخر منى هذه السخرية التى أثارت ضحك المشاهدين، وجعلت الزملاء يبتسمون ويشفقون ! لا دموع بعد اليوم ولا أشعار ، ولا نجوى ولا استرحام ، إنما هو نفير السيارة الفخمة فإذا فتاتى بجانبى وإذا الدنيا كلها فى يمينى . . . أسمعت أيها الأستاذ الجامعى الأحمق ؟ !

ووجم صديقى وجوماً كأنما كان يغالب نفسه ليطرد منها آخر بقية من ضميره النقى وشاعريته الحالمة ، ثم انتفض كأنما تذكر شيئاً ، وقال لى :

— آه لو رأيتنى وأنا بشارع الموسكى ومعى زوجى وأولادى الخمسة ؟ ! لوحة والله من هذه اللوحات التى تثير الإشفاق وتبعث على الأسى . . . فى معرض قديم مترب ! !

كم من الدكاكين دخلناها ، وكم من الدكاكين خرجنا منها ، بين كتل من الناس كانت تدفعنا هنا وتدفعنا هناك، وأنا موزع النفس ، زائغ العينين، مضطرم القلب! مساومات لا تنتهى، وحرب باردة ثقيلة بيننا وبين زبانية الموسكى . . . مسكينة زوجتى! فليس فى يدها إلا القليل من المال وتريد مع ذلك أن تشترى للأولاد كل شيء . . . نعم كل شيء ! وعدنا آخر النهار وقد اختلطت الأشياء كلها فى ناظرىّ . . . وكانت الشمس موشكة على الغروب ، ولو رأيت أولادى وهم يحملون بعض أمانيهم فى أيديهم لأشفقت علينا، واستوقفتنا مع ذلك لتتملى منا ! أرأيت بائع الأوز الذى يسير وأمامه أوزه على رصيف الشارع ؟ ! حقًّا إن هؤلاء الموظفين قوم مساكين !

لا لا يا سيدى! فإنّ الست هانم بعد ذلك ستكون فى سيارتها الفخمة الأنيقة ، وسيقابلها مدير الصالون الأخضر أو الأحمر أو الأبيض لا أدرى ، سيقابلها المدير وهى لم تكد تنزل من باب سيارتها فيحنى لها رأسه احتراماً وإجلالا ، فتومئ له إيماءة قصيرة أو هى لا تلفت له ، وإنما ذهبت لتختار

لا لتشترى ، وليس من الضرورى أن تخبرنى أنها اشترت بمائةجنيه مثلاً ، فسيقدم لى وكيل أعمالى فيما يقدم من أوراق فاتورة من الفواتير فأمضيها دون أن أحقق فيها وفى فمى سيجار من سيجار هافانا ! لعنة الله على دكاكين الموسكى والمتسكعين بينها ، ولعنة الله على وعلى أهلى إذا أنا بقيت على تلك الحال من الفاقة والحرمان . . ! لا بد أن تتحول هذه الحياة التى أحياها عن طريقها القديم المألوف ! أسمعت ؟ !

يا لهذا الصديق المسكين والشاعر الحائر الذى ذهب يوماً يشيع شاعراً فإذا هو قد ذهب فى الحقيقة يشيع مثله العالية ، ويهبط من عالم المعانى والخيال إلى عالم الوظائف والمال !

أيستطيع صديقى حقاً أن يفعل هذا كله ؟ أيستطيع أن يكون له هذا القلب الذى لا يخفق إلا بالأرقام . . . أيستطيع ألا يرى الناس إلا أرقاماً يضيفها إلى رصيده ، فمن أفاده بشىء ضمه إلى حسابه ومن لم يفده أسقطه من حسابه . . ؟! لكن السؤال الذى هلعت له نفسى وكلما نفيته عنى عدت فرددته : أيستطيع صديقى أن يسرق ؟ هذا الإنسان الكريم

العفّ اليد النقىّ الضمير الذى يزهد فيما يملك، أيستطيع حقّاً أن يسرق ؟ !

لكنه يبدو جادّاً فيما اعتزم وقد بدأ بالفعل يتغير . . .

ونظر إلى ساعته وقال :

— إننى أعدّ ما بقى لى من هذه الحياة التى أحياها . . . أعدّه بالدقائق فمتى يضع وزير الأوقاف حدّاً لهذا العناء الذى أنا فيه، فيمضى الورق وأمضى أنا لتكيتى ! هناك حيث تبدأ حياتى الجديدة ، حياة الجنة والسعير ، حيث تتلاقى الظلال الرطبة والنار الملتهبة ! ! نعم هناك حيث يستشعر المرء برد الراحة فى وهج القيظ ، ويتنسم نسمات الحياة من رمضاء الصحراء ! !

نعم هناك حيث ينبئ دخان التكية عن شواء تشمه الأنوف ويتحلب له ريق بعض الجائعين ! فليس على الجائع من حرج إذا هو تعجّل النار ! ! أسمعت يا صديقى ؟ !

طريق جديدة

ما كاد يرانى حتى نهض واقفاً لاستقبالى والحفاوة بى؛ كأنما يرانى بعد غيبة طويلة ، فعرفت أن حديث التكية على طرف لسانه ، وما كدت آخذ مكانى حتى ابتدرنى قائلا :

ـ أرأيت ! لقد عادت الفتاة السكرى تعبث بصاحبها ؟ !

قلت :

ـ أصحيح ؟ فماذا وضعت على رأسك هذه المرة ؟

فابتسم صديقى وقال :

ـ عادت لتضع القبعة والبيبة بعد أن نزعت العقال . . . !

ـ فأنت إذن ذاهب إلى لندن . . .

ـ نعم فقد وصلنى بالأمس خطاب من العميد هناك يقول إنهم يرحبون بتعيينى بعقد لمدة ثلاث سنوات . .

ـ والتكية ؟ !

ـ عفاء عليها . . .

ـ وإذن فقد انتهت قصة التكية . . .

ـ نعم وبدأت قصة لندن . .

وسكتنا ، وأخذ هو ينظر إلى أفقه الجميل فوق النيل ، وأخذت أنا أتامل فى مصير هذا الصديق الذى ضاق بعيشه فى الجامعة فاندفع إلى الحجاز ، ثم اندفع إلى لندن ، وهو مع ذلك جالس لا يريم يتصور ويصور ، ويتخيل ويخال ، ويقيم حياته ويقعدها من صور يراها . . .

قلت :

ـ وهل أنت سعيد بالسفر إلى لندن ؟

فهز رأسه وقال :

ـ رحم الله أبا تمام حيث يقول :

فغرّبت حتى لم أجد ذكر مشرقٍ وشرّقتُ حتى قد نسيت المغاربا
خطوب إذا لاقيتهن رددننى جريحاً كأنى قد لقيت الكتائبا
ومن لم يسلّم للنوائب أصبحت خلائقه طرّاً عليه نوائبا

إى والله !

ومن لم يسلم للنوائب أصبحت خلائقه طرّاً عليه نوائبا

قلت :

– على كل حال فهذه أمنية لك كنت تتمناها ، ولقد تحققت . . . فاجعل منها صوراً مشرقة . . .

قال :

– ليتنى لا أتصو رشيئاً هنا أو هناك . . ! فهل تصدق أننى ما كدت أقرأ خطاب لندن حتى أخذت أرسم لنفسى صوراً من الحياة هناك ؟ صوراً من حياتى الجامعية ، وصوراً من حياتى المنزلية الإنجليزية . . .

ثم أخذ يضحك ويقول : الـ Home Life ! أسمعت ؟ لقد استحال « السمهوار » فى الحال إلى مدفئة تتوهج بالنار أيضاً . . . رأيت نفسى جالساً على مخدع يغوص فيه الجالس عليه ، أنظر إلى الفحم المتوقد وكان فى يدى كتاب وعلى المائدة بجوارى شراب . . .

قلت :

– والقطة الفارسية الجميلة ، قطة التكية !

– استحالت إلى « بول دج » عجوز !

– ورضوان ؟

– أصبح فى زى جنتلمان !

وصرنا نتضاحك ونقابل صور الحياة فى التكية بالحياة فى لندن ، وسألته عن حقيقة شعوره ، فأخبرنى أنه سعيد بذهابه إلى إنجلترا لولا موقف زوجته منه .

قلت :

ــ كنت أحسبها هى الأخرى سعيدة بالذهاب إلى لندن .

قال :

ــ كلا فى الحقيقة ، فما كدت أقرأ الخطاب وأخبرها الخبر حتى رأيت وجهها قد تجهم قليلا، ولكنها حاولت أن تخفى عنى ما فى نفسها فتماسكت وهنأتنى ، ولكن كان على شفتيها خلجة تنبئ عن كل شىء . . .

ــ ولماذا تبتئس والعيش فى لندن يتمناه كل إنسان . . ؟!

ــ سلها فى ذلك ، فمنذ أمس وأنا أغتصب ابتسامتها فتبتسم ابتسامة المجامل . . . لشدّ ما كانت سعيدة بالتكية ! علىّ فى هذه المرة أن أحملها بيدى إلى لندن كما كانت تحملنى على الحجاز . . . لكم جاهدت أن تغرينى بالتكية فعلىّ أن أجاهد لأغريها بلندن !

ـ وهل تقوى أنت على ذلك . . .

ـ سأقوى إن شاء الله . . .

وساد بيننا صمت ، وكنت أسأل نفسي ما عسى أن يكون سبب ضيق زوجة صديقي بالحياة فى إنجلترا وهى التى عرفتها فكنت دائماً أعجب بذكائها وبعد نظرها وإخلاصها لزوجها . . وكان صديقي يشكو لى بعض تعنتها وصلابتها وخاصةً فى مشكلة التكية تلك ، فكنت أقول له : دعها فهى بعيدة النظر ، ولا شك أنها تعرف بفطرتها ما وراء ذلك من خير ! فكان يقول لى : نعم هى بعيدة النظر ، وأستاذى أيضاً بعيد النظر ، وأنت كذلك بعيد النظر ، أما شيخ التكية فهو وحده الأبله ! ليتكم ترون قطع نفسى وهى تتناثر على وسادتى فى حلكة الليل !

ثم عدنا إلى الصمت ، وقدرت أنها لا بد ستلقانى اليوم ، فلقد كانت تلقانى فى كثير من الأحيان وتشترك فى بعض أحاديثنا ، وحين نبدأ بعض التندر والعبث تستأذن وتتركنا .

وما لبثت أن أقبلت فابتسمت كعادتها وحيت ، ولكنها ابتسامة مغتصبة ، وتحية متخاذلة ، وأخذت مكانها بيننا ،

وقدمت الشاى لنا ، وكأنا جميعاً ننتظر حديثاً بعينه . . .
أخيراً قلت لها :

— مبروك !

— شكراً . . . هل أخبرك ؟ لا شك أنه أخبرك بمجرد وصولك . . .

ثم سكتت ، وأخذت أغريها بالكلام ، وأطرى لها الحياة الجديدة التى تنتظرها بلندن ، وهى تؤمن على كلامى لمجرد مجاملتى . . . أخيراً قلت :

— أرى فى الأمر شيئاً ، فماذا هناك ؟ أم ليس من حقى التدخل ؟

فقال صديقى :

— انظر كيف تشقى هى بما أسعد به ، وتسعد بما أشقى به ! تريدنى شيخاً للتكية بمكة ولا تريدنى أستاذاً بجامعة لندن ! ! أرأيت ؟

قلت :

— قد يكون لها بعض العذر فى ذلك فهون عليك !

ونفخ صديقى دخان سيجارته بحنق واضطراب ، ونظر

إليها شزراً وقال ثائراً : إنه مستقبلى أنا ، وحياتى أنا ، ولن أدع غيرى بعد اليوم يتحكم فى أمرى ! ألا لعنة الله علىّ إذا أنا ضعفت بعد ذلك أو ترددت .

ونظرت إليها فإذا دموع تنحدر من عينيها ، فأحسست بحرج الموقف وقلت له :

ـ ماذا ؟ انظر إنّ السيدة تبكى !

فانتفض ونهض من فوره وأخذ يربت بيده عليها ، ويمسح على رأسها ، ويعتذر لها ويقبل جبينها ويسترحمها . . .

يا لهذا الصديق المسكين ! ، فطره الله ليّن الجانب ، كريم النفس ! نقى الضمير فأحس الشقاء من ذلك ، فأراد أن يكون قاسى القلب ، فظ الطبع ملوث الضمير ، فتخيل ذلك بخياله ولكنه أسقط فى يده عند أول تجربة !!

وانفرجت شفتاها عن ابتسامة هادئة حزينة ، وقالت فى صوت خافت :

ـ أنا خائفة من الذهاب إلى لندن .

وكأنه كان يُعرف سبب خوفها وما تحت قولها هذا ، وكأنى أنا أيضاً بدأت أتعرف السبب ، فاستوضحتها ، فقالت

وهى تنظر إليه :

ــ إن قلبى يحدثنى أنه سينطلق هنالك من عقاله !

فاحتج عليها قائلا :

ــ ألستُ زوجاً وأباً ؟

قالت :

ــ نعم الزوج ونعم الأب ! غير أنك شاعر أيضاً !

فضحكت وقلت :

ــ شاعر يتخيل ولا يفعل !

فعقّب بقوله :

ــ أم كان يسرها عكس ذلك ؟ !

فأغضت برهةً ، ثم رفعت رأسها وقالت :

ــ أنت دائماً تبحث عن صور . . . وهذا هو الذى أخشاه ! وأحسب أنه لولا أبوتك وما فيك من وفاء لما امتدت حياتنا معاً أكثر من خمسة عشر عاماً !

فنظر إليها وقال :

ــ ولن تفارقنى أبوتى أبداً ، ولن أحيا بغير وفاء !

قالت :

ــ وإنما أخشى أن يكون العيش فى لندن نقطة تحول فى حياتنا . . . فإن رأيتنى مأخوذة أو ساهمة فاعذرنى فإن شيئاً خفياً يخيفنى . . .

وعادت ساهمة مطرقة تعبث بخاتم الخطبة فى إصبعها ، ثم قالت لى :

ــ لعله حدثك يوماً عن قصة زواجنا !

قلت :

ــ الذى عرفته أن الله أرسلكِ إليه رحمةً به . . .

ــ شكراً ولكن قل قبل ذلك إن الله أرسله إلىّ حلماً جميلا لحياة كانت خالية من الأحلام . . . إنه يحبنى ولكنه يرانى قيداً . . . إنه يحب الانطلاق ولا يصبر على عيش واحد . . . تلك فطرته ، وما حياتى معه إلا صراع بين واجبات الزوجية ونزوات الشاعر ، ولولا طيبته لفرّ من يدى . . . إنه لا يسعد إلا بالخيال . . .

قال :

ــ فما الفرق فى هذا بين جامعة لندن وتكية مكة ؟ أما كنت تخشين أن تكون التكية أيضاً نقطة تحول ؟

قالت :

ـ ما تخيلت العيش فى مكة إلا وامتلأت نفسى طمأنينة. . . كأن مكة لى ولك وحدنا . . . أما لندن . . .

فقال :

ـ لك علىّ أن أجعلك تشعرين أن لندن لنا وحدنا . . .

فقالت :

ـ إننى أشفق عليك وأعود باللوم على نفسى ، فما قدرت أن أملأ حياتك من كل نواحيها . . . وأى امرأة تستطيع أن تشبع نفس الشاعر إذا هى صارت يوماً من الأيام زوجة ؟ !

ثم سكتت ثم قالت :

ـ ومع ذلك فلننتظر إمضاء الوزير الآخر . . .

قلت :

ـ قد يبطئ هو الآخر حتى يمل صديقنا العيش بلندن كما مل العيش بالحجاز . . .

فانزعج وقال :

ـ فإلى أين أذهب بعد ذلك ؟

قلت :

ـ من يدرى ؟ فلعلك تعود مرة أخرى للتكية ؟ !

فنظر صديقى لزوجه وقال لها مسترحماً :

ـ أرجوك !

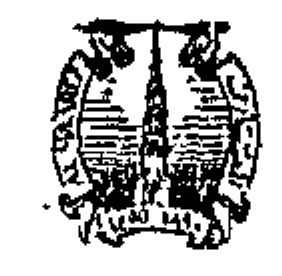
فضحكت وضحكنا وودعنهما عند بدء تلك الطريق الجديدة .

روضة الطفل

١ أرنبو والكنز
٢ كتكت المدهش
٣ عيد ميلاد فلة
٤ فرفر والجرس
٥ ذيل الفأر
٦ البطة السوداء
٧ انتصار فيروزة
٨ حسن والذئب

ثمن النسخة ٧

أول مجموعة من نوعها باللغة العربية يجد الطفل فيها قصصاً مفيدة مزينة بالصور المبتكرة ومطبوعة بالألوان الجميلة



تصدرها

دار المعارف بمصر

بمعاونة السيدة أمينة السعيد والدكتور يوسف مراد والأستاذ سيد قطب

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو
المتعـــة والثقـــافة وسمو النفس .

الكتب التى ظهرت :

١ عمرون شاه تأليف
٢ مملكة السحر للكاتب الفرنسى شارل بيرو
٣ كريم الدين البغدادى تأليف
٤ آلة الزمان عن الكاتب الإنجليزى هـ.ج. ويلز
٥ الأمير والفقير عن الكاتب الأمريكى مارك توين
٦ كتاب الأدغال للكاتب الإنجليزى رديارد كبلنج

ثمن الكتاب ١٠ قروش

٧ بينوكيو عن الكاتب الإيطالى شارل كولودى

١٥ قرشاً

تصدرها
دار المعارف بمصر
بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

الكتاب

المجلة الشهرية التى تساعدك على
التزود من الثقافتين العربية والغربية

تصدر عن دار المعارف بمصر
رئيس التحرير : عادل الغضبان

ثمن النسخة ٦ قروش



دار المعارف

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

تقدم إلى القارئ في مختلف مراحل حياته ومتباين درجات ثقافته كل ما يحتاج إليه في تكوين مكتبة عربية في منزله لتساعده على الاستزادة من الثقافة والطموح إلى حياة عقلية راقية .

●

المركز الرئيسى بالقاهرة : ٥ شارع مسبيرو تليفون ٤٩٨٦٨

فرع الفجالة بالقاهرة : ٧٠ شارع الفجالة تليفون ٤٩٨٦٦

فرع الإسكندرية : ٢ ميدان محمد على تليفون ٢٣٥٨٨

س. ت. ٥٢١٢١

٢٩٧٦/١٩٥٠

اقرأ

- عنوان هذه السلسلة خير ما يوجه إلى الأفراد والجماعات، بل هو خير ما وجه إلى الإنسان منذ خمسة عشر قرنًا إلى الآن.
- السلسلة الشهرية الوحيدة التي تعمل منذ أكثر من سبع سنوات على جعل الثقافة في متناول الجميع.
- نواة صالحة لإنشاء مكتبة زهيدة الثمن كبيرة الفائدة في كل منزل يستفيد منها الشباب والشيوخ على السواء.
- تصدرها دار المعارف بمصر في طباعة أنيقة بمعاونة حضرات الدكتور طه حسين بك والأستاذ عباس محمود العقاد والأستاذ فؤاد صروف

٦٠ ملاً في فلسطين وشرق الأردن ٦٠ قرشاً في لبنان
٦٠ فلساً في العراق ٦٠ قرشاً في سوريا